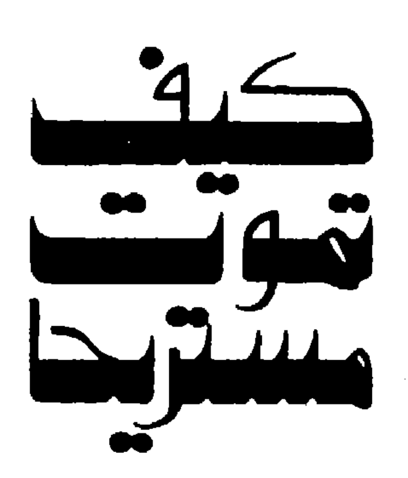
كيف تموت مستريحا

السيد فرج



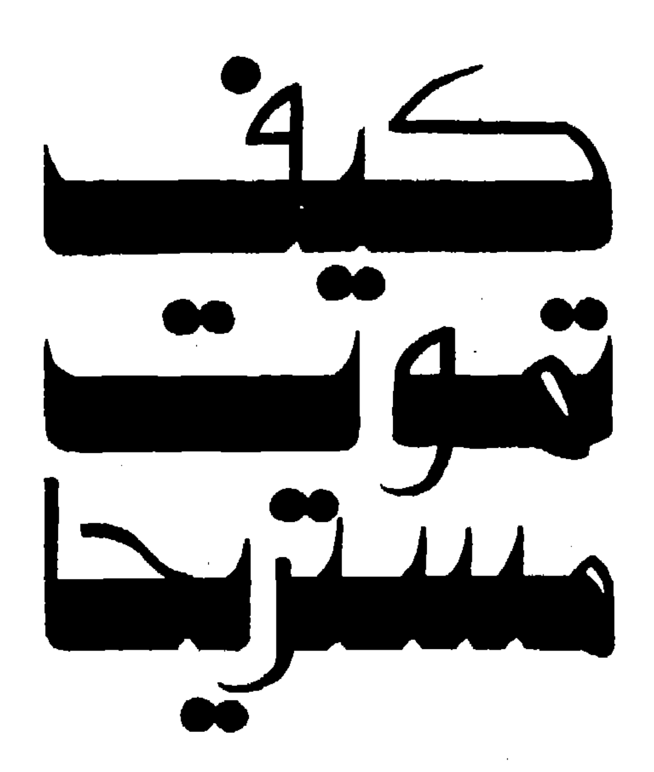
دار الشروق


كيف
تموت
مستريحا

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الثالثة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

السيد فرج



دار الشروق

لن يرجع المقدارُ فيما حكمْ
وحملك الهمَّ يزيد الألم
ولو حزنت العمرَ لن ينمحى
ما خطّه فى اللّوح مرُّ القلم

* * *

الدرع لا تمنعُ سهمَ الأجلْ
والمالُ لا يدفعه إن نزَل
وكلُّ ما فى عيشِنا زائلُ
لا شيء يبقى غير طيب العمل

عمر الخيّام

تقديم
شاعر الوجدان والعاطفة
أحمد رامي*

لم يدر فى خلدى أن يسند إلىّ القيام بوضع تقديم لهذا الكتاب الشيق . فى هذا الغرض الطريف الذى لم يسبق أن انقطع إليه كاتب . فألمّ بكل نواحيه مستشهدًا بآيات من القرآن الكريم وأبلغ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصدق ما قال الحكماء والشعراء فى هذا الميدان . ثم أقام الدليل الواضح على صدق رأيه فيما قدمه إلى قرائه .

ولست أنكر أنى هبت أول الأمر أن أخوض فى هذا المضمار لأن الشاعر ابن الخواطر يعرض له المعنى الخفى ويسنح له الخاطر السنى فيقول مايجود به بيانه فى إيضاح ما أحسّه وما فطن إليه ، لا أن يتوفر على دراسة شىء بعينه ويطلق اليراع فى الكتابة عنه .

ولكنى وجدت نفسى مشوقا إلى تلبية الدعوة الكريمة لما وقفت عليه فى

---

* منحت أكاديمية الفنون درجة الدكتوراه الفخرية للشاعر أحمد رامى تقديرًا لجهوده الخلاقة . على مدى خمسين عاما ، من أجل السمو بالأغنية العربية فى شتى المجالات الوطنية والقومية والعاطفية . مما كان له أكبر الأثر فى إثراء وجدان الشعب المصرى والأمة العربية ، فجمع القلوب على الحب وإنكار الذات وعمّق وعينا بالجمال .

وقد توفى شاعر العاطفة والوجدان أحمد رامى يوم ٤ يونيو ١٩٨١ عن ٩٠ سنة و ٥٠٠ أغنية و ٦ دواوين شعر ومسرحيتين و ١٢ ترجمة لروايات مسرحية .

غضون هذا الكتاب من صور صادقة وبراهين ناطقة على سداد ما خط قلمه وأفضى به علمه .

ولقد أقبلت على قراءة «كيف تموت مستريحا» فإذا مؤلفه قد برهن على أن الموت مع الاستراحة إليه قائم على طهارة الروح ، ونقاء السريرة ، واجتناب الذنوب ، وقوة الإيمان ، وسماحة النفس ، وصلاح العمل ، وصدق اليقين ، وبذل العون ، وحلاوة اللسان ، وحسن القيام على الأهل ، وإكرام اليتيم ، والحض على طعام المسكين ، واعتناق التفاؤل ، وأمل الخلاص من التفكير فى شر مقبل لا يعلم غيبه إلا الله سبحانه وتعالى ، وحمده جل وعلا ، على ما أصابه مجلبةً لرحمته وطمعا فى رضاه .

ثم خرج المؤلف من ذلك إلى أن الحياة فانية والآخرة باقية وأن الذكر الحميد إطالة لعمر صاحبه ، وإن كان فى عداد الراحلين عن هذه الدنيا متاع الغرور . وما أصدق قول الشاعر العظيم أحمد شوقى حين يقول :

وليس الخلد مرتبة تلقّى ... وتؤخذ من شفاه المادحينا
ولكن منتهى همم كبار ... إذا ذهبت مصادرها بقينا
وأخذك من فم الدنيا ثناء ... وتركك فى مسامعها طنينا

وما أصدق الشاعر القديم الذى كان ساعيا إلى القتال فحدثته نفسه بالتراجع ، فأبى عودة الجبان واختار وقفة الجسور ، وردّ عليها بقوله :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياةً غير أن أتقدما

وإنه ليشرفنى أن أسهم فى هذا المعنى بقولى :

لاتقاس الأعمار فى الأبد الممتد ... إلا بمأثرات الرجال

كل شيء إلى الزوال وليس الخلـ ـد وقـفـا إلا على الأبـطـال
هم منار الهدى وهم صيحة الحـ ـق وهـم دعوة المثال العالى

إلا أن المؤمن الذى يوقن أن الموت مصير كل حى ، وأنه لا يبقى إلا وجه ربه ذى الجلال والإكرام قد يرهبه الموت لشدة حدبه على من يترك من أهله وأحبابه ، وخوفه على حالهم من بعده وتعرضهم لحوادث الزمن ، فيقول فى ذلك :

أنـزلنى الـدهـر على حكمـه من شاهقٍ عال إلى خفض
وغـالنى الـدهـر بوفـر الـغنى فليس لى من مالٍ سوى عرضى
لـولا بـنـيّات كـزغب الـقـطا رددن من بـعضٍ إلى بـعض
لـكـان لى مضـطـرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنـا بـيـنـنـا أكـبـادنـا تمشى على الأرض

أما إذا رجع الإنسان إلى يقينه من أن الله سبحانه وتعالى كفيل برعايتهم وكريم فى منحهم الصبر على فقده وقادر أن يجعل بقاءهم امتدادا لحياته العامرة بالمآثر والذكريات .. فهو الذى يترك الدنيا مطمئنا مستريحا إلى أنه قام بواجبه فى تأديبهم وأدى رسالته فى توفير الرزق لهم ، بعمله الصالح ، ثم ترك لنفسه الذكر مصداقا لقولى عن الشاعر :

صوتُـه فى فـم الطبيعة ينسابُ انسياب الحياةِ فى الأوصالِ
كيف تَفْنى أنغامُه وهو فى الكوْنِ نشيدٌ فى لحنِه السّيالِ

ولا يسعنى قبل الوقوف عن المضى فى الكتابة إلا أن أقدم للأستاذ السيد فرج مؤلف هذا الكتاب الممتع بالغ تقديرى لواسع اطلاعه على ما تناوله الكتاب من

أغراض ، وحسن تضمينه لما اختار من آية كريمة وحديث مأثور وقول مشهور ... برهانا على صدق ما كتب .

ولست أنسى كذلك ما تناوله الكتاب من تعديد لمصادر الفناء للجنس البشرى من زلزال يهز الأرض ويقوّض البناء ، وسيل يطغى عليها فيأتى على الحرث والنسل ، وحروب تندلع نيرانها فتحصد الأرواح وتشيع الخراب على الأرض التى وفر الله سبحانه وتعالى لأهلها الرزق والأمان .. ثم اختتامه لكتابه بذكر مواقف الراحلين عن هذه الدنيا وملء قلوبهم الإيمان بقضاء الله والتسليم بأمره ، وأخصّهم رسوله الكريم الذى ودع الحياة على الأرض وسعى إلى رحاب ربه وهو يردد قوله سبحانه وتعالى :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك
راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

كتب الله لصاحب هذا الكتاب طول العمر وخالد الذكر ودوام الإيمان ، ونفع القراء بما قدم من رأى سديد وحثّ على الذكر الحميد ، وكتب لنا جميعا رضاه عنا أحياء .. ورحمة لنا « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

احمد رامى

بسم الله الرحمن الرحيم

ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ●
ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ●
ثم خلقنا النطفة علقة
فخلقنا العلقة مضغة
فخلقنا المضغة عظاما
فكسونا العظام لحما
ثم أنشأناه خلقا آخر
فتبارك الله أحسن الخالقين ●
ثم إنكم بعد ذلك لميتون ●
ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ●

صدق الله العظيم
(١٢ ـ ١٦ المؤمنون ك ٢٣)

١
ليس هـذا كتـابا متشـائـمـا

« ما أطيبك حيّا ، وما أطيبك ميتا »
الصديق أبو بكر
فى رثاء النبي صلى الله عليه وسلم

ذروة الحكمة أن يعرف الإنسان ربه ، وأن يتقيه حق تقاته ، ويدرك أنه ملاقيه ، وأن يستعد أتم الاستعداد لهذا اللقاء العظيم ، لا شيء يجهله .. لا شيء يخيفه .. لا شيء يأسف عليه .

لقد مضى فى حياته على هدى الشرف والواجب ، ونأى بجانبه عن الدنايا والمعاصى ، وعامل الناس بالمعروف ، وعمل صالحا .. فإذا جاء أمر الله احتفى به وامتثل له ، وقال للدنيا : سلاما .

إنه مسافر إلى الجنة ..

أليست الجنة هى غاية الغايات ؟

* * *

هذا موضوع ينبغى أن ننظر فيه نظرة راضية متفائلة ..

فإذا كان الموت حقا ..

وإذا كان الموت نهاية كل حى ، لا استثناء فيه ولا مفر منه .

وإذا كانت الحياة متاعا والآخرة خيرا وأبقى ..

.. فكيف ننفر من ذكر الموت ونتشاءم ويحل بنا الفزع والرعب ؟

وما جدوى أن نغفل عنه ولا نفكر فيه .. كأنه لن يحدث أبدا ؟

وهل الأولى أن نعرف الموت جيدا ونتفهم حكمته تماما ونلقاه براحة

ورضاء .. أم نجفل منه وندفن رءوسنا فى الرمال حتى يفاجئنا ونحن لم نتأهب له . ويكرثنا قبل أن نستعد للرحيل . فى أمن واطمئنان ! ؟

كيف نمضى فى حياتنا هذه . تداعبنا ومضات السعادة حينا وتوجعنا ضربات الشقاء أحيانا دون أن نفكر فيما ينبغى أن نكون عليه حين تجىء النهاية .. ؟ وكيف يستمرئ البعض منا — فى غفلة من الإدراك السليم — ما يأتونه من سوء وفحشاء وغوص فى الرذيلة وإمعان فى الظلم والعسف واندفاع فى مسالك الشر .. دون تنبه إلى مجىء الساعة واقتراب النهاية .. التى قد تجىء — وياللهول — فى لحظة تلبس أو حالة ارتكاب !

ألم يقل لنا ابن المعتز ، قبل مئات السنين :

جَدّ الزمان وأنت تلعب   والعمر فى لا شىء يذهب
كم قد تقول : غداً أتوب   غداً غداً .. والموت أقرب

ثم .. لماذا نخشى الموت ، وهو حقيقة ملازمة ونهاية مؤكدة ؟
هل عاش أحد قبلنا .. ولم يمت ؟
إن السؤال القديم المتجدد الذى يحيّر الخلق هو :
لماذا نخاف من الموت ؟

فيم الحرص على الحياة ، وهى مطبوعة على الكدر مشحونة بالشر .. إذا أعطت يوما فلكى تأخذ فى يوم آخر ، وإذا ابتسمت ذات مرة فإنها لا تلبث حتى تكشر عن أنيابها وتضرب ضربتها ...

هكذا قال المتنبى :
أبدا تستردّ ما تهب الدنيا   فياليت جودها كان بخلا

وهكذا قال النابغة الجعدى :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيشٍ قد يضرّه
تفنى بشاشته ويأتى بعد حلو العيش مُرّه
وتسوءه الأيام حتى ما يرى شيئا يسرّه

من هو ذلك الذى أسعدته الدنيا سعادة وافية فأعطت واستمرت فى عطائها . ومن فى التاريخ كله من صفت له الحياة ولم تعبس . وأخلصت ولم تخن .. وهادنت ووفت ..

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم فى شأنه ما عنانا
وتولوا بغصّةَ كلهم منه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدّر الإحسانا

وسواء سعد الناس أو شقوا . وغضبوا أو رضوا فهل تقيلهم الحياة من العذاب أو تعفيهم من الموت ؟

هل نجا من الموت ملك مقتدر أو قائد منتصر؟ .. أو ديكتاتور طاغية .. أو شقى مرهوب الجانب .. أو بطل قوى العضلات .. أو ملكة جمال .. أو طبيب نابغة .. أو غنى واسع الثراء .. ! ؟

هل استثنت الدنيا أحدا .. ولو كان نبيّا من أنبياء الله ؟

إن محمدا قد مات .

بل لقد أعلنه ربه جلّ وعلا بالموت قبل حينه :

« إنك ميت وإنهم ميتون » .

. . .

وإذا لم يكن من الموت بد ، وإذا كان للحياة نهاية ، وإذا كان الموت نهاية كل حى .. ففيم الأسى ؟ ولماذا الرعب ؟ وفيم الحرص على البقاء ، وماذا يجدى ذلك كله !؟

إن الإنسان نهب مقسم بين حياتين : حياة عليا ينزع إليها بعقله وإرادته وتقواه وحسن بصره بالأمور ، وحياة دنيا تدفعه إليها غرائز الجهل والفساد والرذيلة .

إن الرجل الصالح يعيش حياته حرا مناضلا نافعا .

أما الإنسان الفاسد فيعيش قلقا متآمرا شقيا ..

فهل يستوى القرنان !؟

إن آية الرجل الشريف أن يكون عارفا شجاعا مترفعا عن الكذب والخداع والنفاق والظلم والحقد والأنانية والخيانة .

إن أقوى الناس من يملك زمام نفسه ، فلا ينزل بها إلى منحدر الأفاقين واللاهين والمجرمين .

إن العظيم لايحقد ولايظلم ولاينافق .

إنه يستقبل مسرات الحياة شاكرا ويتلقى أحزانها هادئا راضيا .

إن الحياة ليست كلها حبّا وأزهارا .. وإن لنا جميعا متاعبنا !

وإذا كانت العامة والدهماء لاتطيب لهم إلا اللذائذ الحسية والإغراق فى الشهوات فإن الخاصة إنما يعتبرون بالخصائص العقلية والروحية ويلوذون بالحق والشرف والفضيلة .

ما أضلّ عقل الإنسان !

فلو أنه عرف أن حياته ستنتهى يوما ما ، وفى لحظة غير معروفة . وأن الموت قادم إن عاجلا أو آجلا .. فكيف يرتضى لنفسه أن يجيئه الموت وهو فى حالة مزرية أو فضيحة مجلجلة ؟

لهذا فقد نبهنا زهير بن أبي سلمى لهذه الحقيقة بنصيحته الطيبة :

تـزّودْ إلى يـوم الممات فـإنـه وإن كـرهته النفس آخر موعد

إن خير الناس هو من إذا حضره الموت لم يكن مدينا لأحد ، ولا والغا فى شر ، ولا ظالما لغيره ، ولامتحسرا على غال ، ولامشغولا بنعمة سوى نعمة رضاء الله ورحمته .

عندما يجىء الموت فإن الإنسان الشريف لايفزع ولايتفجع ولايبكى على الدنيا .. إنه ينتقل من دنيا الفناء إلى عالم البقاء .. إلى دار الخلد .. إلى جوار الله ورحمته وبركاته .

* * *

إن أحدا لايرغب فى الموت ، ولا أحد يستعجله ، حتى الذى أوجعته العلّة أو أذله الهوان ، فكما أن الحياة ليست ملكا لنا فإن الموت ليس طوع أمرنا .

إن الذين يشتهون الموت فى ساعة عصيبة قد لايجدونه قريبا .. أما الذين يختمون حياتهم بأيديهم فهم أشقياء يخالفون أمر الله ويجهلون حكمته ويرفضون نعمته ورحمته فى الدنيا والآخرة .

قد يقول قائل :

إذا كانت الحياة تنتهى يوما ما ، وإذا كانت الدنيا ضنينة بالسعادة الدائمة ومطبوعة على الكدر والشقاء.. ففيم البقاء؟

لقد كتب الكتاب من رجال الدين والعلم والفلسفة كثيراً عن الحياة والموت ، فأجمعوا على عدة حقائق تقول بتقبل الحياة كما هى : لابد من السعى ، لابد من التنعم بالخيرات ، لابد من الصبر على الشدائد ، لابد من الشكر والحمد.. والباقى على الله.. هذا شأنه وتلك حكمته..

ليست الحياة حلوة لأحد ولاسيئة لآخر.. على طول الخط . وإنما هى مسرات وأحزان ، ونجاح وإخفاق ، وخير وشر.. وهى لاتعجب أحدا بصفة مستمرة مهما كان حظه أمام الآخرين عظيما !

إن حياة كل إنسان لايمكن أن تخلو من قدر معين من الاضطراب والإخفاق والألم..

ولهذا يعيش الناس على أمل ، مهما كانت ظروف حياتهم ، وكل يمضى إلى هدفه لاينتهى من أن يشتهى.. ومهما كانت الحياة مرهقة ومخادعة فالكل يتمنون المزيد ويرجون طول البقاء.. وهو ماعبر عنه أبوالعلاء فى بيته المشهور :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

.. هذا الراغب فى ازدياد قد يكون شقيا أو محروما أو مقترا عليه فى الرزق . مثله مثل ذلك الحطاب البائس الذى قدمه الشاعر الفرنسى لافونتين ، فجعله ضيّقا بالحياة متحسرا على حظه من الضعف والهوان ، فهو يئن تحت

وطأة الأثقال التى يحملها والضنى الذى يعايشه والبؤس الذى يحتويه .. حتى إنه تمنى الموت .. ولكن ما إن استجيبت دعوته ورأى شبح الموت مقبلا عليه .. حتى فزع وارتج عليه ، وقال للموت نادما ومتوددا وخاضعا :

أرجو أن تساعدنى فى حمل الأخشاب على عاتقى ، ثم اغرب عن وجهى فوراً .. إننى لا أريدك .. اذهب إلى غير رجعة !؟

لقد أحسّ الحطاب المسكين بأنه يرغب فى الخلاص ويتمنى الموت فلما جاءه الموت عاودة الأمل والتعلق بالحياة والرضا بالهم والألم والتعب والدموع !

لهذا يقال إن حاصل الدنيا أمور وهمية انقادت إليها طبائع الناس ، وهى لاتفى بتطلعاتهم وآمالهم ، وإنما تخدعهم وتكدر صفوهم ، ومع ذلك يغرمون بها ويحرصون على البقاء فيها مهما كان نصيبهم من النكد والبؤس والحرمان بالغ المدى .

أرى أشقياء الناس لايسأمونها　　على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ
أراها ــ وإن كانت تُحَبُّ ــ كأنها　　سحابة صيفٍ عن قريب تقشّعُ

* * *

عندما أحس أمير الشعراء شوقى اقتراب منيته ، وقف فى حديقة قصره المنيف ــ على ضفاف نيل الجيزة « كرمة ابن هانئ » ــ فجاس خلالها ببصره وسرح فى أطنابها بفكره وروحه ، ثم فاجأ صاحبه بقوله :

« أليست كرمة ابن هانئ واسعة الجوانب ؟
ثم أليست تتسع لخمسمائة قبر ، يتسع كل قبر لستة أموات ؟
إذن ، فهى تتسع لثلاثة آلاف ميت !

فبئس حرص الإنسان وبئست نفسه المدمنة على الشهوات * :

والنفس عاكفة على شهواتها — تأوى إلى أحقادها وتثور
والعيش آمال تجدّ وتنقضى — والموت أصدق والحياة غرور

قال له صاحبه وهو يحاوره :

كيف تلح الآن فى ذكر الموت ، وقد نهيتنا من قبل عن مجرد ذكره فى مجلسك ؟

قال شوقى :

نعم.. ولكنى ماخفت الموت يوما وما ذممته قط ، ولا لذت منه بالفرار ، ولانقمت لأجله على الأقدار :

أنا مَنْ لايرى الفرار من المو — ت ومن لايرى من الموت بُدّا
إنما الموتُ مُنتهى كلّ حىّ — لم يصب مالكاً من الملك خلدا
سُنّة الله فى العباد وأمر — ناطق عن بقائه لايُرَدّا

.. ولماذا الفرار من راحة بعد عناء ونعيم بعد شقاء ، فإن الحياة كعهدك بها معصية ، عن الحظيرة مقصية.. حلوة عواقبها تغص.. ومشاربها غصص.. أفعى خداعة ولذة لذاعة .. نعيش ونمضى فى عذاب كلذة وفى لذة كعذاب ،

---

* فى مثل هذا الخاطر قال أبو العلاء المعرى :

صاح هذى قبورنا تملأ الر — حب فأين القبور من عهد عاد

وقال المتنبى :

نحن بنو الموتى فما بالنا — نعاف ما لابد من شربه

وقال إيليا أبو ماضى :

إن تحت التراب الذى تدوس عليه — ألف دنيا وعالَم لا نراه

ونذهب من الأحلام كل مذهب ثم تنتهى هذه الأحلام إلى ذهاب .. ونبنى من التراب قصورا ونحن لعمر الحق تراب ، والفلك دائر مستقر ودولابه بالعالم سائر ، وعلى جانبيه المرتقى المنحدر .. نقض إيوان كسرى من أساسه وأتى الأهرام من أم رأسه ، ودهى صحراء الحمراء فقوض منه أعظم البناء ، ولم تبق له الخطوب إلا عمداً قائمة كأنما هى على عباب الأيام عائمة .

أين رومية وقيصرها ؟ وجنة الطلح ومعتمدها ؟ وأين نابليون وصولته ؟ وصقر قريش ومنيته .. لقد صار القصر له قبرا ثم ذهب القبر وصاحبه وأصبح ذكرا فى الأفواه وخاطرا فى النفوس أو سطرا فى الطروس .

* * *

إن غاية هذا الكتاب هى غاية الغايات فى ختام حياة الإنسان لحظة تصعد الروح إلى بارئها راضية مرضية ، وصاحبها على حال من الصفاء والرضاء والراحة والطمأنينة .

وفرق كبير بين نهاية المحسن العارف الصفّاح .. ونهاية المسىء الساقط الوالغ فى الشر والخطيئة !

وإذا كان لنا فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة حسنة فى حياته الجليلة فما أحوجنا أن نتملّى من مشهد وفاته وأن نأخذ الدرس من لحظة مماته .. وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته ذروة الأمانة والإخلاص والجهاد والعظمة الإنسانية ، وكذلك كان فى مماته قمة فى الصفاء والنقاء والرضى .

ونعم مسك الختام .

أوكما قال الصديق أبوبكر ، ساعة أن انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى :

ما أطيبك حيّا

وما أطيبك ميتا

٢

إنـك ميت وإنهـم ميتـون

« إن المتقين فى جنات وعيون
ادخـــلوها بســـلام آمنين »
صدق الله العظيم

سنة الله فى خلقه ، يحيي ويميت ويبعث ، وهو على كل شىء قدير ، فالحياة بداية والموت انتقال والبعث خاتمة والجنة مثوى المؤمنين .

وقد كشف الله تعالى لعباده جميع هذه المراحل ، وحدد لكل منها خصائصها ، وأصدر أوامره ونواهيه لعلهم يوقنون ويتدبرون ويسمعون ويطيعون ويشكرون .

فالموت حقيقة واقعة ، وكل نفس ذائقة الموت ، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة .

سبحانه .. خلق الإنسان لحكمة عليا وجعله فى أحسن تقويم وميزه بالعقل وخصه برسالة جليلة أن يعبد الله ويعمل الخير ويجاهد فى سبيل الحق ويتمتع بأطاييب الحياة ، ويعيش فى الدنيا فترة ــ قد تقصر أو تطول ــ يكون فيها تحت الاختبار ، ثم يميته ، ثم يحييه يوم الحساب .. فإما إلى نار جهنم وبئس المصير وإما إلى جنات النعيم حسنت مستقرا ومقاما

فما هى غاية الحياة ؟

يقول جل شأنه :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١٣ م الحجرات ٤٩)

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم »

(٢١ م البقرة ٢)

« وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

(٥٦ ك الذاريات ٥١)

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »

(١٥ ك الملك ٦٧)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »

(٤٦ ك الكهف ١٨)

« وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع »

(٢٦ م الرعد ١٣)

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير »

(٥٤ ك الروم ٣٠)

* * *

دعا الله عباده للإيمان والصلاح والعمل ، ونهاهم عن الكذب والنفاق والظلم والبطالة ، وأحاطهم بأن كل عمل محسوب ومسجل ، فالذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم جنات الخلد . والذين أساءوا مآلهم النار وبئس القرار :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »
(١٠٥ م التوبة ٩)

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »
(٩٧ ك النحل ١٦)

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »
« ٢٩ م الرعد ١٣)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا »
(٣٠ ك الكهف ١٨)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية »
(٧م البينة ٩٨)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة »
(٨٢ م البقرة ٢)

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم »
(٩ م المائدة ٥)

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا »
(١١٠ ك الكهف ١٨)

« أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »
(١٩٥ م آل عمران ٣)

« قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون » .

(١٣٥ ك الأنعام ٦)

« والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم »

(٤ م محمد ٤٧)

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »

(١ م محمد ٤٧)

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون »

(٢٤ ك النمل ٢٧)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا »

(٣٠ م آل عمران ٣)

« إن الله بما تعملون بصير» (١١٠ م البقرة ٢)

« وما الله بغافل عما تعملون » (١٤٩ م البقرة ٢)

* * *

لقد حث الله سبحانه خلقه على العمل وجعل الجهاد والهجرة فى سبيله أعلى مراتب العمل وأعظم درجة :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض »

(٧٢ م الأنفال ٨)

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم »

(٢٠ ـ ٢١ م التوبة ٩)

« لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاّ وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »

(٩٥ م النساء ٤)

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما »

(١٠٠ م النساء ٤)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون »

(٣٥ م المائدة ٥)

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم »

(٦٠ م الانفال ٨)

«أذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله »

(٣٩ و ٤٠ م الحج ٢٢)

« فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا »

(٨٤ م النساء ٤)

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »

(٢٦١ م البقرة ٢)

* * *

وقد شاء الله لعباده أن يختبرهم ويبلوهم ويحاسبهم ويوفيهم أجورهم . فلا يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ولاتستوى الحسنة ولا السيئة :

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون »

(١٨ ك السجدة ٣٢)

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم »

(٣١ م محمد ٤٧)

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين »

(١٥٥ م البقرة ٢)

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »

(٧ ك الكهف ١٨)

« ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى مَاءَاتكُمْ »

(١٦٥ ك الأنعام ٦)

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »

(٢ ك الملك ٦٧)

« وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم »

(١٥٤ م آل عمران ٣)

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون »

(١٥ ك الجاثية ٤٥)

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون »

(٢١ ، ٢٢ ك الجاثية ٤٥)

* * *

وتنتهى حياة كل إنسان فى لحظة محددة ويجيئه الموت ، فالموت نهاية كل حىّ ، وكل نفس ذائقة الموت .. حتى الأنبياء والرسل :

« إنك ميت وإنهم ميّتون »

(٣٠ ك الزمر ٣٩)

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

(٣٤ ، ٣٥ ك الأنبياء ٢١)

« والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا »

(٣٣ ك مريم ١٩)

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »
(١٤٥ م آل عمران ٣)

« وإنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير »
(٤٣ ك ق ٥٠)

« وما تدرى نفس بأى أرض تموت » (٣٤ ك لقمان ٣١)

« كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون »
(٥٧ ك العنكبوت ٢٩)

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »
(١٥٨ م آل عمران ٣ »

« هو الذى يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »
(٦٨ ك غافر ٤٠)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »
(١٢ ـ ١٦ ك المؤمنون ٢٣)

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »
(٧٨م النساء ٤)

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل »
(١٦م الأحزاب ٣٣)

« قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

(٨م الجمعة ٦٢)

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »

(١٦٢ك الأنعام ٦)

* * *

هكذا يموت كل حى مهما كان شأنه ومكانه ، ثم تحق كلمة الله فيحيي الموتى ، ثم يجمعهم إلى يوم القيامة ، وهو يوم الحساب :

« إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين »

(١٢ك يس ٣٦)

« الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »

(٤٠ك الروم ٣٠)

« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير »

(٦م الحج ٢٢)

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها »

(١٩ ك الروم ٣٠)

« قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون . ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون »

(٢٦ ، ٢٧ ك الجاثية ٤٥)

« ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »

(١٦ ك المؤمنون ٢٣)

« ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »

(٥٦م البقرة ٢)

« ويوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد »

(١٦ م المجادلة ٥٨)

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير »

(٣٣ك الأحقاف ٤٦)

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »

(٢٨م البقرة ٢)

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير » .

(٧م التغابن ٦٤)

« وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون . فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون »

(٥٦ ، ٥٧ك الروم ٣١)

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »

(٢٨١م البقرة ٢)

« وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »

(٧م الحج ٢٢)

* * *

وقد أحسن الله تعالى إلى عباده ، إذ بيّن لهم الخير والشر ، ونصح لهم ، وبشرهم ، وأنذرهم حتى يصبحوا على بينة من أمرهم وإدراك لمصيرهم ، فنهم من اغتر بالدنيا وأفسد وطغى . ومنهم من آثر الآخرة فأحسن وأصلح وهدى :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون »

(١٦٠ك الأنعام ٦)

« من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم »

(٦٩م المائدة ٥)

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

(٢١ م الأحزاب ٣٣)

« إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيا . ومن يأته مؤمنا

قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »

(٧٤ ، ٧٥ك طه ٢٠)

« فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

(٥٠ ، ٥١م الحج ٢٢)

« وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون » .

(٥٨ك غافر ٤٠)

« واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون »

(٤٨م البقرة ٢)

« إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون »

(٤ك يونس ١٠)

« ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب »

(٥١ك إبراهيم ١٤)

« إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى »

(١٥ ك طه ٢٠)

« وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »

(١٢٧ك طه ٢٠)

« ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »

(٣٨ م النور ٢٤)

« من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون »

(٨٤ك القصص ٢٨)

* * *

ومع هذا البيان للناس ، فقد أنذر الله عباده وبعث فيهم الأنبياء والرسل ، وخيّر عباده بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيّما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا »

(١ ، ٢ك الكهف ١٨)

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير »

(٧ك الشورى ٤٢)

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » (٤٥م الأحزاب ٣٣)

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (٢١٣م البقرة ٢)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٨ك سبأ ٣٤)

« إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا »

(٤٠ك النبأ ٧٨)

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير »

(١٩م المائدة ٥)

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ »

(١٠٣ ـ ١٠٨ك هود ١١)

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين . إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . »

(٣٨ ـ ٤٣ك المرسلات ٧٧)

« إن يوم الفصل كان ميقانا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا »

(١٧ ـ ٢٢ك النبأ ٧٨)

« وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا . إن للمتقين

مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لايسمعون فيها لغوا ولاكذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا »

(٢٩ ـ ٣٦ك النبأ ٧٨)

* * *

ويجىء الحساب يوم القيامة ، اليوم الموعود الذى لاريب فيه ، والذى بشر الله به وأنذر منه ، فتجد كل نفس ما عملت حاضرا .. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، ولا عاصم من أمر الله ، ولا يظلم ربك أحدا :

« يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شَىْءٌ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بماكسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور »

(١٦ ـ ١٩ك غافر ٤٠)

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون »

(١ ك الأنبياء ٢١)

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شَىْءٌ عظيم »

(١م الحج ٢٢)

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

(١٣ ، ١٤ك الإسراء ١٧)

« ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » (٨٥م البقرة ٢)

« ولايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم . »

(١٧٤م البقرة ٢)

« من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . »

(١٠٠ ــ ١٠٢ك طه ٢٠)

« وعنت الوجوه للحىّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما . »

(١١١ ، ١١٢ك طه ٢٠)

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . »

(١٢٤ ــ ١٢٦ ك طه ٢٠)

« فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون »

(١٤ك السجدة ٣٢)

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض . »

(٨٧ك النمل ٢٧)

« الله يبدؤُ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . »

(١١ ، ١٢ك الروم ٣٠)

« يوم لاينفع مال ولابنون . »

(٨٨ ك الشعراء ٢٦)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا . »

(٣٠م آل عمران ٣)

« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . » .

(١٠٦م آل عمران ٣)

« ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد »

(٩ م آل عمران ٣)

« وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد . »

(١٠٣ ـ ١٠٥ك هود ١١)

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون . »

(١٤ ـ ١٦ك الروم ٣٠)

« وما أدراك مايوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين . »

(١٤ ـ ١٥ك المرسلات ٧٧)

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة .

ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة .»

(٣٣ ــ ٤٢ك عبس ٨٠)

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون .»

(٤٠ ، ٤١ك الدخان ٤٤)

« ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين .»

(٣٧ ، ٣٨ك المرسلات ٧٧)

« إن المتقين فى ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين .»

(٤١ ــ ٤٤ ك المرسلات ٧٧)

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »

(١٦٢ م آل عمران ٣)

« إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا »

(٣١ ــ ٣٦ ك النبأ ٧٨)

« فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ماهيه . نار حامية.» .

(٦ ــ ١١ك القارعة ١٠١)

« لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون »

(٢٠م الحشر ٥٩)

* * *

. . ثم تكون جهنم مأوى الذين عصوا ربهم وظلموا وأفسدوا فى الأرض دون إدراك لمصيرهم وفى غفلة عما أنذروا به ، فاستمرأوا اللهو والظلم والضلال :

« إنّا من المجرمين منتقمون »

(٢٢ك السجدة ٣٢)

« إن المجرمين فى ضلال وسعر »

(٤٧ك القمر ٥٤)

« إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون »

(٧٤ك الزخرف ٤٣)

« إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيا »

(٧٤ك طه ٢٠)

* * *

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات وجاهدوا وصبروا ، فقد كتب الله لهم جنات النعيم :

« فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين »

(٨٥م المائدة ٥)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لاتكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

(٤٢ك الأعراف ٧)

« إن المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين »

(٤٥ ، ٤٦ك الحجر ١٥)

«إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا »

(٣٠ ، ٣١ك الكهف ٢٢)

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد »

(٢٣ ، ٢٤م الحج ٢٢)

وما تجزون إلا ماكنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون . »

(٣٩ ــ ٤٩ك الصافات ٣٧)

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين . »

(٧٣ ــ ٧٥ك الزمر ٣٩)

« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون .

يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »

(٦٩ ـ ٧٣ك الزخرف ٤٣)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

(٨٢م البقرة ٢)

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة .»

(١٢٤م النساء ٤)

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .»

(١١١م التوبة ٩)

« سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »

(٣٢ك النحل ١٦)

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »

(٤٠ ، ٤١ك النازعات ٧٩)

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خَلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »

(٢١٤م البقرة ٢)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير »

(١١ك البروج ٨٥) .

« وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد . »

(٣١ ـ ٣٥ك ق ٥٠)

« وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ماتوعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد . »

(٤٩ ـ ٥٤ك ص ٣٨)

« إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا . لايسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا . »

(٦٠ ـ ٦٣ك مريم ١٩)

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى . »

(٢٧ ـ ٣٠ك الفجر ٨٩)

« إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . »

(٥٤ ، ٥٥ك القمر ٤٥)

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون

فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم »

(٥١ ـ ٥٧ك الدخان ٤٤)

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وماألتناهم من عملهم من شىء كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لالغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون »

(١٧ ـ ٢٤ك الطور ٥٢)

« والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين . على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنها ولاينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون »

(١٠ ـ ٢٤ك الواقعة ٥٦)

« إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوهم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

(٢٢ ـ ٢٦ المطففين ٨٣)

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا . ويطعمون الطعام

على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا »
(٥ ـ ٢٢م الإنسان ٧٦)

٣

تعددت الأسباب والموت واحد

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد
ابن نباتة السعدى

من الشعر الجيد ما يزال يذكر رغم مرور مئات السنين. يتمثل به المتحدثون ويتغنى به المنشدون ويتردد صداه فى الأندية والمدارس على الزمن ، فهو قول حكيم أو نظم بديع يصلح لكل العصور ويداعب جميع المشاعر ويحدث أثره فى النفوس مادام قد أدلى بحقيقة بارزة أو طرفة نادرة أو رواية لاخلاف عليها .. ومنه هذا البيت الذى جاء عنوانا لهذا الفصل من الكتاب :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

أراد الشاعر أن يستحث قومه على الجهاد ويحرضهم على القتال إذ رأى منهم من يؤثر القعود أو يخشى الهلاك ، فهو ينبهم إلى أن الموت لا يكمن فى ساحات الحرب وحدها ، ولاتحدثه أسلحة القتال وحسب .. ولكن الإنسان يموت حين ينتهى أجله ، وقد تتعدد أسباب الموت ولا يفلح شىء فى رده أو تأجيله ، يستوى فى ذلك القوى والضعيف والغنى والفقير والسليم والعليل :

يموت راعى الضأن فى جهله   موتة جالينوس فى طبّه

إن الموت يحل بالإنسان بأقوى أو بأوهى الأسباب ، فى أى مكان ولو اختبأ فى برج مشيد ، كما أن السيف ليس وحده أداة الموت ، لأن الموت يجىء بوسائل متعددة ويغدو فى لحظات غير مرتقبة .. وغالبا ما يُفاجأ الناس بلحظة الموت حتى فى ظلال الراحة والقعود .

وقد يخف الرجل المجاهد إلى ساحة القتال ويمضى أياما أو أكثر بين طعن القنا وطلقات الرصاص فلا يقتل ولايصاب بأى أذى ، ويخرج من المعركة سليما معافى .. ثم يموت بعد ذلك ـ ربما لأتفه الأسباب ـ وهو آمن فى عقر داره .

ومن فرسان الحروب من يتعرضون للقتل فى مواقع الخطر ومواطن الانفجار ولكن ينأى الموت عنهم ، وقد كان النبى ـ صلوات الله عليه ـ يناجز ويتقدم فى أخطر ساحات القتال ، وكان على بن أبى طالب يتقدم متطوعا لمبارزة أقوى الخصوم ويقول : أبالموت تخوفونني؟ والله إنى لاأبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت علىّ .. ورغم إقدام علىّ وبسالته فإنه لم يمت بالسيف ولم يسقط عليه الموت فى الحرب .. وإنما قُتل غيلةً ، وبأيدى خصومه المتآمرين عليه .

ولم يكن فى جسد خالد بن الوليد موضع شبر ليس فيه ضربة سيف أو طعنة رمح .. وخرج خالد من أشد المعارك هولا وهو متوّج بعلامات الشجاعة والبطولة .. ولم يمت إلا على فراشه ، كأى إنسان لم يعرف الحرب ولم يمتشق السيف ولم يتعرض للمكاره !

.. حتى الذين يطلبون الشهادة فى ساحة الشرف والواجب قد ينأى عنهم الموت ، والذين يحاربون فى معمعان الخطر قد تحوطهم السلامة ، فيعيشون بعد المعركة ويموتون بعيدا عن ساحة القتال ويحرمون الفوز بالمجد والفخر والاستشهاد .

فحين يقول الشاعر : من لم يمت بالسيف مات بغيره .. فإنه بذلك يسجل واقعا ، وهو فى الوقت ذاته يوجه نداء صادقا ودعوة صحيحة ، ولكن الكثيرين لايدركون واقعها وصحتها .. إن الذين يخافون الموت فى الحرب ينسون ان الموت قد يدركهم حتى لو كانوا فى كهوف خافية أو بروج عالية ! .

وإذا كانت الحرب مخوفة أو محفوفة بالمكاره إلا أن العمر غير مرتبط بموطن الخطر فالإنسان يموت حين ينتهى أجله ، فى مكان معين ووقت معين وأسلوب معين ..

من هنا تتضح حقيقة أن الانضمام إلى الجيش أو خوض الحرب ليس إقداما على الانتحار أو إلقاء النفس فى التهلكة .. وقد ينبو السيف فلا يقطع وتمر الرصاصة ولاتصيب ، ويخرج المقاتل الجسور من حومة الوغى بلا أدنى إصابة أو أقل خدشة .. فالحرب ليست ساحة موت للجميع ، والموت له أسباب عديدة ، واحد منها سلاح القتال .. ولذلك يعجب الإنسان كيف يخطف الموت رجلا صحيح البنية أو طفلا صغيرا لم يتجاوز شهورا أو أياما .. ولله در أمير الشعراء شوقى :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه   كل امرئ رهن بطئ كتابه

يموت الإنسان حين ينتهى أجله بالسيف أو بغيره ، وفى حومة الوغى أو فى كنف المخبأ ، ويموت مقاتلا أو هاربا ، مريضا أو شديد القوة .

ويموت الإنسان وهو فى أتم صحة وفى أحلى متعة ، يموت وهو يضحك فى الملهاة ، وهو يتأثر فى المأساة .. يموت وهو نائم .. وهو ماش .. يموت وهو يتناول أكلة شهية ، وهو يمارس هواية محبوبة ..

ويموت الإنسان وهو فى بطن أمه ، أو فى معمعان شبابه ، وقد يعيش طويلا وهو يعانى مرضا قاسيا أو جرحا داميا ، أو ضعفا أو عجزا فتمتد به الحياة إلى أرذل العمر ..

ويموت الرجل الغنى ، والملك السلطان ، والعالم القدوة ، والقائد المرعب ، والبطل الرياضى ..

وما القول فيمن ينهدم على رأسه البيت فيخرج سليما ، ومن تسقط من نافذة عليا فتقع على رأس رجل فتنجو الفتاة ويموت الرجل الذى يمشى فى الشارع آمنا مطمئنا .. وتوجه النيابة إلى الفتاة تهمة قتل الرجل .. بطريق الخطأ !

وما أكثر الروايات والنوادر حول أعاجيب الموت ..

احترقت طائرة بكل ركابها إلا رجلا واحدا قذفته الصدمة على بعد أربعين مترا .. ولما نظر حوله وجد إلى جانبه حقيبة ملابسه .. التى كانت فى مخزن بضاعة الطائرة !

نشرت الصحف خبرا عن سقوط منزل فى حى « الظاهر » بالقاهرة وقتل جميع سكانه .. وضيوفهم ! ولكن أربعة أشخاص تم إخراجهم سالمين من تحت الأنقاض.. بعد ثلاثين ساعة ! منهم ثلاثة أطفال تكبرهم فتاة فى الرابعة من عمرها ، وأختين أصغر منها سنا ، وقد فقدوا أباهم وأمهم وأخاهم الأكبر..؟

وفى رواية أخرى ـ تماما مثل تصوير الخدع السينمائية ـ لا يتبادر إلى ذهن أحد أن تسقط طفلة لم يتعد سنها أصابع اليد الواحدة من ارتفاع ستة طوابق .. ولايصيبها أذى ! فقد لعب القدر لعبته لإنقاذها ، وهكذا صدق المثل الذى يقول : « اعطنى العمر وارمنى فى البحر » .

كانت الأم مشغولة بإرضاع صغيرها ، وقد تركت ابنتيها التوأم فى الحجرة المجاورة تلعبان . وفجأة طرأت لها رغبة التسلق إلى النافذة لمشاهدة مايجرى فى الشارع ، وفقدت إحداهما توازنها مما أدى إلى سقوطها من ذلك الارتفاع الشاهق فاقدة النطق والحياة .. وسقطت أختها التوأم بعدها مباشرة فى اللحظة التى كان أحد أبطال الرياضة يشاهد الحادث الأول فأسرع بالتقاطها ..

فالسقطة واحدة ولكن الموت كان فى انتظار الأولى، وقد اقتنصها، والثانية لم تكن قد استوفت عمرها، فالتقطها القدر على يد البطل الرياضى الذى اختطفها من الموت !

ولعل كثيرين يذكرون حادث الطائرة الهليكوبتر المصرية التى اصطدمت فى عامود واحترقت فى الصحراء الغربية وكان يستقلها وزير الحربية وثلاثة عشر جنرالا فماتوا جميعا خلال ثوان معدودات .. ونجا السكرتير العسكرى للوزير وقد كان يجلس فى مؤخرة الطائرة، كما نجا طاقم الطائرة الذى يجلس فى مقدمتها ! ؟

وفى رواية فرنسية أن زوجا وزوجته تناقشا وتشاجرا وهما على سطح باخرة تمخر عباب المحيط واشتد التأثر بالرجل حتى ألقى بنفسه فى البحر وابتعلته الأمواج .. ليتخلص من عناد زوجته ومشاجراتها التى لاتنتهى .. وصرخت الزوجة وأمر القبطان بفرقة الغطس فقفزت وعادت بعد دقائق بجثة الغريق .. ولدهشة الجميع كان الرجل غير الرجل .. فقد جاءوا بإنسان آخر تصادف سقوطه من زورق صيد حطمته العواصف .. وهكذا غرق الرجل الذى انتحر .. لكى يعود إلى الحياة رجل آخر كان مقضيا عليه بالهلاك ! ؟

ولايعرف الموت كبيرا أو صغيرا، الكل عنده سواء فينقض على الملك الجبار .. ولاتستطيع قواته الحربية والبحرية والجوية أن تحميه، ويقبض روح المليونير فلا تصلح ملايينه لرد الموت ..

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى   كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

روى أن أحد ملوك فرنسا صنع لنفسه نعشا فور استلامه تاج الملك، وجعل فى سقف النعش فتحتين من أعلى .. وأقام حفل استقبال كبيراً حضره وزراؤه وأهله .. لكى يفاجئهم بما أدهشهم .. إذ قام بعمل بروفة لموته، فتوسد نعشه

وأخرج كلتا يديه من الفتحتين العلويتين ، وفرد أصابع كفيه .. ولما سئل فى ذلك قال :

« لكى يعلم الناس أن ملك فرنسا خرج من الحياة خالى الوفاض .. لم يأخذ شيئا معه » .

وتلك الصورة قريبة من القول الشائع : ليس للكفن جيوب .

وإذن فالناس متساوون امام حكمة الموت ، لا فرق بين ملك أو قائد أو مليونير أو طبيب أو مريض :

يموت راعى الضأن فى جهله ... موتة جالينوس فى طبّه

كان جورج الخامس ملك بريطانيا وامبراطور الهند ـ الذى لا تغيب الشمس عن امبراطوريته ـ يضع على مكتبه مصباحا منقوشا عليه :

إنك تعيش مرة واحدة .

إن الأسد المرعب لاينفعه زئيره الرهيب ولا أنيابه الفتاكة فى صد الموت .. بل إنه يقف حائرا وعاجزا أمام أتفه الحشرات .. حينما يلتهم النمل أشباله عند ولادتهم :

وما الموت إلا سارقٌ دقّ شخصه ... يصول بلاكفٍّ ويسعى بلا رجل

يردُّ أبوالشبل الخميس عن ابنه ... ويُسلمه عند الولادة للنمل

.. والجبل الأشم يسقط من عليائه ، والصخر الصلب يتحطم .. إذا ما وقع زلزال أو انفجر بركان .. بأمر الله :

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لاترى فيها عوجا ولا أمتا » (١٠٥ ـ ١٠٧ك طه ٢٠)

« تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هدًا »

(٩٠ك مريم ١٩)

وإذا كان هذا الموت للإنسان والحيوان والجماد . وتلك سنة الله فى خلقه فماذا يمنع الإنسان من الجهاد ، وفيم خشيته من الإقدام ، ولِمَ عزوفه عن خوض المهالك فى سبيل الحق والواجب ؟

عندما تشاور النبي – صلوات الله عليه – ، مع صحبه فى شأن المشركين الذين واصلوا العداء واشتدوا فى الإيذاء .. قال المقداد بن عمرو :

« يا رسول الله امض لما أمر الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون !.. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون » .

وقال سعد بن معاذ :

« امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل ، ومانكره أن يلتقى بنا عدوّنا غدا .. إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء » .

هكذا أدرك المؤمنون الحقيقة الكبرى ، وصاروا يقدمون على الجهاد ، وهم يعلمون أن الأعمار بيد الله ، وأن غاية المؤمن إحدى الحسنيين : الظهور أو الشهادة ..

وفى القرآن الكريم :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »

(١٤٥م آل عمران ٣)

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .

(١٦ ، ١٧ م الأحزاب ٣٣)

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون » .

(٩٤ ــ ٩٦م البقرة ٢)

* * *

وقال الشعراء كثيراً فى ذم القعود عن الجهاد ، والفرار من الوغى ، فإذا كانوا يكرهون الحرب فلا ينبغى لهم أن يخافوها إذا دعا داعى الجهاد والتضحية ، لأن أمور العالم تدور حول محور القوة ، ولأن الدفاع عن الأرض والعرض من أسمى واجبات الشرفاء ، وقد أحسن أبو الطيب المتنبي فى ذلك الوصف الرائع والحقيقة العارية :

كذا يترك الأعداءَ من يكره القنا ... ويُقْفِلُ من كانت هزيمته رعبا
أرى كلّنا يبغى الحياة بسعيه ... حريصاً عليها مستهاما بها حبّا
فحبّ الجبان النفس أورثه التّقى ... وحبّ الشجاع النفس أورده الحربا

وقال غيره :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناجى ؟

وقال حكيم :

« إن عدة الجندى فى الحرب كفاحه لاسلاحه .. وإذا ماوضعت الرهبة فى يد الجندى سلاحا ، فإن الرغبة هى التى تضع فى نفسه كفاحا » .

هكذا نرى أن الموت قدر لا قدرة لأحد على تفاديه ، وهو حق على كل إنسان لاقبل له بدفعه أو تأخيره .. فهو نافذ المفعول على الجميع ، وهو حادث بأى سلاح أو بغير سلاح ، وهو يجىء بدون طلب ، وقد يتعذر على الراغب فى شدة ضيقه وعلى المريض فى قمة يأسه .

قال الشاعر إسماعيل صبرى فى ساعات وهنه :

ياموت خذ ماأبقت الأيا م والساعات منّى
بينى وبينك خطوة إن تخطها خفّفت عنى

وقال آخر :

يارب لا تبقنى إلى زمنٍ أكون فيه كلاًّ على أحد
خذ بيدى قبل أن أقول لمن ألقاه عند القيام خذ بيدى

* * *

٤
الـمـوت بالـجـمـلة

« وفى مخزون السلاح الـنـووى
لـدى موسكو وواشنطون حاليا
مـايـكفى لتـدمير الـعالم كـلـه
أكثر مـن عشر مـــرات » ! ؟

ينزل الموت بالجماعة جملة كما ينزل بالفرد واحدا ، ويحل بالبيت فيأخذ بأرواح جميع سكانه أو بعضهم . وكذلك القرية البسيطة والمدينة ذات الملايين فيقضى قضاء عاجلا ناجزا .. ذلك أمر الله وتلك حكمته ولا راد لقضائه ولا قدرة على إدراك مداه .

ويجىء الموت بالجملة فى صور متعددة : الحريق ، والوباء ، والزلازل والبراكين ، والعطش والجوع ، والريح الصرصر والفيضان الجارف ، وشدة الحر وزمهرير البرد .. والحرب الضروس التى تأتى على الأخضر واليابس فلا تبقى ولا تذر .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن الموت الزؤام والدمار التام الذى حل بعاد وثمود وآل مدين وأصحاب الفيل .. وأضرابهم من الفئات الضالة والجماعات الكافرة .

« الحاقة . ماالحاقة . وماأدراك ماالحاقة. كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

(١ ــ ٧ك الحاقة ٦٠)

« فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما »

(٣٦ ، ٣٧ك الفرقان ٢٥)

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »

(٤١ ، ٤٢ك الذاريات ٥١)

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود »

(٨٢ك هود ١١)

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود . »

(٩٤ ، ٩٥ك هود ١١)

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »

(١٩ ، ٢٠ك القمر ٥٤)

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر »

(٣١ك القمر ٥٤)

« إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون . »

(٢٩ك يس ٣٦)

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ماينظرون إلا صيحة واحدة

تأخذهم وهم يخصمون . فلايستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون »
(٤٨ ـ ٥٠ ك يس ٣٦)

« وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . »
(٥٠ ـ ٥٢ك النجم ٥٣)

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . »
(١٥ ـ ١٧ك فصلت ٤١)

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول . »
(١ ـ ٥ك الفيل ١٠٥)

« فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين . » .
(٦٤ك الأعراف ٧)

« فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين . »
(٧٢ك الأعراف ٧)

« وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » .
(٥٠م البقرة ٢)

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .
(١٣٦ك الأعراف ٧)

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .
(٤ك الأعراف ٧)

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . »
(١٦ ، ١٧ك الإسراء ١٧)

* * *

هذه وغيرها من آيات الله البينات عن هلاك أقوام ظالمة قتلتهم صيحة داوية ، أو ريح عاصفة ، أو عطش قاتل ، أو حجارة ملتهبة ، أو صاعقة ماحقة .. وغير ذلك من أدوات القتل الجماعى والموت الشامل الذى عرفنا مثيلا له فى عصرنا الحاضر باسم القنبلة الذرية .. وقد ألقيت قنبلة ابتدائية فدمرت مدينة هيروشيما وقضت الثانية قضاء تاما على مدينة نجازاكى .. حدث ذلك فى اليابان عندما قضت عليها الولايات المتحدة بالتسليم بلا قيد ولاشرط .. وقد حل بكل من المدينتين دمار كامل فلم ينج إنسان من الموت .. وكان استخدام القنبلة الذرية أحدث وأخطر الوسائل الجهنمية لقتل الملايين فى خلال دقائق معدودات .

وقد حدثنا التاريخ عما حلّ بالبشر من كوارث ونكبات من صنع الطبيعة التى قضت بها على مدن بأسرها وشعوب بأكملها .. فحصد الموت آلاف الأرواح مستخدما الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير والحرائق والأوبئة ..

عندما تغضب الطبيعة وتكشر عن أنيابها وتقذف بحممها ومتفجراتها فإنها تقضى قضاء مريعا على آلاف الضحايا ، وتنسف مرافق الحياة ، وتحول أهدافها من مدن عامرة وقصور شماء وحدائق مثمرة إلى أنقاض وخرائب لاحسّ فيها لإنسان أو حيوان .

وحادثة الموت بالجملة قد يشترك فى أحداثها الإنسان والطبيعة معا ، عمدا أو قضاء وقدرا .. فقد يشتعل الحريق بخطأ إنسان وما تلبث الرياح حتى تؤدى دورها لإكمال المأساة فتشتد النيران وتمتد ويتضاعف ضحاياها أرواحا ومنشآت ، ومن أشهر الحرائق فى التاريخ «حريق روما» الذى أشعله الامبراطور المعتوه «نيرون» فقد أحرق روما وهو يتسلى بآلة موسيقية ويهدر بصوته القبيح بينما النار تلتهم المدينة وتحرق الناس بالجملة ! ؟

وكذلك كان «حريق شيكاغو» الذى أطلق عليه «الحريق الكبير» ـ ١٨٧١م ـ وقد بدأ حريقا محدودا لم يستدل على مصدره أو مرتكبه ولكن الطبيعة لعبت دورها الخطر فقد امتد الحريق بفعل الرياح عدة أميال واندفعت النيران بسرعة هائلة فقضت على أحياء متتابعة ، ودفعت مليونى مواطن إلى الفرار مذعورين كالمجانين طلبا للنجاة ، وأسفر الحريق عن قتل ثلاثمائة شخص وتشريد تسعين ألفا وتدمير ماقيمته ١٩٦ مليون دولار من المرافق والمنشآت .

وقد اجتاحت الولايات المتحدة فى سنة ١٩٨٠م أعاصير شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة هبت على ولاية تكساس مما تسبب فى مصرع ٨٠ شخصا وإصابة ٢٨٠ آخرين فضلا عن مئات المفقودين ..

كذلك لقى عشرة يابانيين مصرعهم وأصيب أحد عشر آخرون كما تشرد ١٤ ألف شخص عقب أسوأ إعصار اجتاح وسط وشمال اليابان ، كما أسفر الإعصار

عن تدمير أحد عشر جسرا وأحدث خللا بالمواصلات البرية والبحرية والجوية ..

وأسفرت ثورة بركان فى المكسيك عن مقتل مائة شخص وإصابة خمسمائة آخرين وتدمير مساكنهم ومنشآتهم ومصانعهم مما حول المنطقة إلى خرابة كبيرة .

ويروى علماء الطبيعة فى أيامنا هذه أن جو العالم يكتسب دفءا متواصلا بسبب تزايد كمية ثانى أكسيد الكربون فى جو الأرض نتيجة لعمليات حرق الوقود المتزايدة مما سوف يؤدى إلى ذوبان القشرة الجليدية بالمنطقة القطبية الجنوبية ، وهذا من شأنه إغراق مساحات واسعة من الأرض الواطئة فى مناطق كبيرة من العالم ، كما أن ارتفاع حرارة الجو وتضاعف كمية ثانى أكسيد الكربون مرتين فى الجو سوف تسبب حالات جفاف فى عدة ولايات أمريكية وبلدان عديدة فى وسط آسيا ..

ومن الجفاف القاتل إلى الفيضانات الكاسحة يلقى الناس حتوفهم بسبب تقلب الطبيعة ، فعندما يزداد معدل الأمطار عن مستواها المعتاد تجتاح وديان الأنهار فيضانات مدمرة .. أما عندما تتوالى سنوات الجفاف تحل المجاعات وتنتشر الأوبئة ويهرب الآلاف مذعورين وينتشر البؤس وتحل الفوضى ..

ويزيد الموقف قتاما وضياعا تزايد البشر فى المناطق الفقيرة نتيجة فقدان الوعى الصحى والاجتماعى ، حيث يكثر النسل ويقل العمل ويموت الناس جوعا ومرضا .

وفى مناطق كثيرة من الهند والسودان تنفق فى فصل الجفاف قطعان الماشية ويموت الأطفال من العطش وتبور الأرض وتزداد معاناة المساكين ..

وقد يحل القحط بأرض فيصاب أهلها بالمجاعة ويحصد الموت ماقدر له من

حياة الإنسان والحيوان والنبات .. وإذا كان هناك عذر لما يحدث فى الماضى حيث ضرب الجهل أطنابه وغفل الناس عن صوالحهم فما العذر فى عصر المدنية والحضارة ، وفى ظلال التكنولوجيا الحديثة ، وتحت سمع وبصر الدول الغارقة فى الغنى والسابقة فى مضمار التقدم والتطور ؟.

لقد قتل الجوع مائة ألف إنسان فى أثيوبيا (الحبشة) فى سنة ١٩٤٧ بينما كان عاهل البلاد الأمبراطور هيلاسيلاسى يمتلك الثروات الضخمة والمجوهرات الثمينة .. ثم حل القحط بالامبراطور نفسه على حين غرة عندما دهمته ثورة الجيش ونقلته من قصره الشامخ إلى حجرة أرضية رطبة حقيرة حتى لقى حتفه ذليلا مسكينا .. بلا مجوهرات ولا ملايين !

وكذلك انتهت حياة الأمبراطور الطاووس شاهنشاه إيران هاربا مريضا بائسا يائسا .. وكانت ثروته تقدر ببلايين .. بينما كان ملايين البشر من شعبه يعيشون فى فقر ونكد .. وقد بلغ من ثرائه أنه طلب أن تصنع له سيارة كاديلاك ذات مواصفات خاصة تكون فريدة من نوعها مضادة للرصاص والقنابل ومزودة بحوامل للمدافع الرشاشة وفتحات تهوية تستعمل فى حالة إلقاء القنابل المسيلة للدموع .. كما أنها مزودة بجهاز للرادار وبنظام ألكترونى مضاد لعمليات الاختطاف ! .

وتكلفت صناعة هذه السيارة ٢٤٥ ألف دولار .. ولم يركبها الأمبراطور الطاووس .. فقد انتهت حياته قبل أن يتم صنعها فلم يتيسر لها حمايته من الرصاص والقنابل وعمليات الاختطاف .. والمرض ! ؟

والعجيب فى زمننا هذا أن يموت الناس جوعا بالجملة ، ومن الأمثلة البشعة والمخزية أن يموت مائة ألف إنسان فى دول الساحل الغربى الإفريقى بسبب القحط

الشديد طوال ست سنوات متتابعة دون أية مبالاة من دول العالم الغنية التى تلقى الزائد من إنتاجها فى البحر .

بل إن أخطار المجاعات تتضاعف فى هذا العصر الذى اشتهر باسم « عصر التكنولوجيا المتطورة » .. واسم «العالم الواحد» ! بينما بلاد بأسرها تقطنها عدة ملايين تعيش على ماتجود به الأمطار أو ماتتركه الأوبئة أو مالا تفعله السيول والأعاصير ..

إن هامش الأمان يتناقص فى عالمنا العصرى ..

لقد أصدر مجلس البيئة الأمريكى بالاشتراك مع وزارة الخارجية تقريرا من ٨٠٠ صفحة بعد عمل استمر ثلاث سنوات ـ بناء على طلب الرئيس جيمى كارتر فى سنة ١٩٨٠ ـ وقد تضمن التقرير مؤشرات تنذر بالخطر الوخيم حيث سيصبح العالم سنة ٢٠٠٠ أكثر ازدحاما بالسكان وأشد تلوثا وسيفقد عنصر التوازن بين مكونات البيئة ويصبح أكثر تعرضا للاضطرابات والتقلبات عن العالم الذى نعيشه اليوم إذا استمرت الاتجاهات الحالية فى الزيادة السكانية واستنزاف موارد الطاقة والثروات الطبيعة ..

جاء فى ذلك التقرير أن عدد سكان العالم سوف يبلغ ٦,٣٥ مليار نسمة فى نهاية القرن الحالى يعيش منهم خمسة مليارات نسمة عند الحد الأدنى للبقاء الإنسانى فى الدول النامية . كما يزداد من يعانون أمراض سوء التغذية من ٦٠٠ مليون شخص حاليا إلى ٣ مليارات شخص فى سنة ٢٠٠٠ ـ ذلك لأن الزيادة الإضافية المرتقبة فى الإنتاج الغذائى لن تكفى لملاحقة الزيادة السكانية ..

إن نصف سكان الهند ـ وهم ٦٠٠ مليون إنسان ـ يعيشون على الكفاف

إنه بين كل عشرة من البشر فى عالمنا هذا يوجد ستة أشخاص مهددون بالموت جوعا ! .

إن ٢٤٠٠ مليون من البشر يتهددهم الجوع ويعانون من سوء التغذية ..

إن ١٨٠٠ مليون إنسان يعانون من نقص البروتين ..

إن بعض الدول الفقيرة وصل بها حال أبنائها أنهم يأكلون وجبة الغذاء دون أن يضمنوا وجبة العشاء .

إن ألف طفل يموتون كل ساعة بسبب الافتقار إلى المياه النقية ـ بناء على تقرير منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨٣ ـ فالمياه الملوثة تؤدى إلى إصابة الأطفال بالهزال ثم الوفاة ..

إن الجوع فى بلد مزدحم بالسكان فقير الموارد مثل كمبوديا التى اجتاحتها جارتها فيتنام أصبح فيها الموت بالجوع مثل القتلى بالرصاص .. وفى وسط الجبال والغابات يفر الكمبوديون ـ فى سنة ١٩٨٣ ـ على أقدامهم قاطعين مسافات شاسعة للوصول إلى حدود تايلاند حيث يتولى صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة توزيع الأرز على هؤلاء المساكين ثم يعودون إلى أرضهم التى دمرتها المتفجرات ، وهم فى طريق ذهابهم للحصول على القوت وفى طريق عودتهم بالأكل لأهليهم يتعرضون للطلقات الطائشة ، وقد دمرت الحرب كل مرفق وأتت على كل زرع .. ولذلك يغامر القادرون منهم بعبور بوابات الموت حتى لا يموتون ويموت أهليهم جوعا .

ويكفى وصمة لعالمنا التكنولوجى أن يعلن ممثل منظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة فى « نيروبى » أن ٦٠٪ من سكان أفريقيا (٤٥٠٠ مليون

نسمة) لايجدون مايسد رمقهم من الطعام وأن ستة وعشرين دولة فى أفريقيا تعانى من نقص مزمن فى الغذاء !؟

وقد كانت المجاعات فى الماضى تلقى العون أو يُمهّد للتقليل من خطرها بالاستعداد فى أيام الوفرة لأيام القحط .

جاء فى سورة يوسف :

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . »

(٤٣ ـ ٤٩ك يوسف ١٢)

* * *

وتعتبر الزلازل من وسائل الموت بالجملة التى تحدثه الطبيعة ، وقد حدث فى العالم ـ كما أوردت الانسكلوبديا البريطانية ـ ٥٠٠٠ زلزال منها مائة زلزال كبير قضت على المناطق التى حدثت فيها بالدمار التام ، وقد توالى حدوث الزلازل بمعدل زلزال كل سنة ، ومن أشد الزلازل التى حدثت فى العالم زلزال لشبونة سنة ١٧٥٥ وزلزال مدريد ١٨١١ وزلزال سان فرنسسكو ١٩٠٦ وزلزال طوكيو ١٩٢٣ ..

وقد قتل فى زلزال لشبونة ٦٠ ألف إنسان وفى زلزال طوكيو ٧٤ ألفا . وذلك غير ما حل بتلك البلاد من دمار وخراب فى المنشآت والمرافق العامة .

ومن أبرز أحداث الزلازل مصرع ١١٣ ألف إنسان خلال سنة ١٩٧٦ فى الصين والفلبين وإيطاليا وتركيا ..

وقد بلغ عدد ضحايا الزلزال العنيف الذى اجتاح إيطاليا فى شهر نوفمبر ١٩٨٠ : ٩٠ ألف شخص قتلوا .. غير عدة آلاف أخرى جرحوا وتشردوا ، وقال الخبراء إن قوة الزلزال قد عادلت ٣٥ مليون طن من المواد الناسفة .

وفى ذات مرة اهتزت الأرض فى جواتيمالا لمدة ٢٥ ثانية ، وكانت النتيجة : ٣٠ ألفا قتلى و ٦٠ ألفا جرحى ومليون متشرد ..

وقد نكبت إيران فى هذا القرن بعشرين ألف زلزال ، منها ٢٠ زلزالا أهلكت ٦٠ ألف شخص ..

ولعل أكبر زلزال حدث فى القرن العشرين هو زلزال « تانجستان » ـ فى الصين ـ الذى قتل ٧٥٠ ألف شخص فى أحد أيام سنة ١٩٧٦ ..

أما فى الجزائر فقد ضاع ٧٠ ألف قتيل وجريح ضحايا زلزال مدينة « الأصنام » فى سنة ١٩٧٩ حيث تهدم أكثر من ثلاث أرباع المدينة فسويت بالأرض تماما .

وفى القرآن الكريم :

« إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها »

(١ ـ ٥م الزلزلة ٩٩)

ويرتبط اسم الزلزال فى الحديث عن الطبيعة بقاتل جماعى آخر هو البركان ، ومن أشهره بركان « فيزوف » فى إيطاليا ..

وقد حلت بمدينة بومبى فى جنوب إيطاليا كارثة من أفدح ما أحدثته الطبيعة (سنة ٧٨ ميلادية) عندما ثار الجبل ، وانفتحت فوهته ، وأخذ بطن الأرض يقذف حمما متقدة ، ورمادا ملتهبا ونارا حامية ، طوال ثلاثة أيام متوالية تم فيها دفن مدينة بومبى ، واختفت تماما تحت سقف من التراب وحطام الصخور ، وتكاثف البخار ، وهطل المطر غزيرا ، واختلط تراب الأرض بالرماد البركانى مكونا طميا لزجا انحدر إلى أسفل الجبل ليحاصر المدينة بأسرها ويغمرها كلية ، ثم تجمد الطمى فصار كالأسمنت المسلح .. وبهذا اختفت المدينة نهائيا إلى أن اكتشفت بعد ذلك بألف وستمائة سنة .. والعجيب أن المواد البركانية التى صنعت سقفا للمدينة حجبها عن العالم قد حافظ عليها برمتها .. ويرى السائحون الذين يفدون على إيطاليا عجبا عند زيارتهم لمدينة بومبى التى رفع عنها سقفها البركانى فبدت مدينة كاملة بمبانيها ومرافقها ..

أما بركان فيزوف فلم يتوقف عن ثورانه كل بضع سنين ، يتفجر ويقذف كميات هائلة من المواد البركانية ، والبخار الساخن ، والحمم المشتعلة ، وقد قتل ١٨ ألف إنسان فى ثورته سنة ١٦٣٠ ، كما عاد فى سنة ١٩٠٦ فاستمر ثمانية عشر يوما يقذف حممه وتواكبه هزات أرضيه شديدة .

وقد حدث فى عصرنا هذا عدد من البراكين الشديدة فى إيطاليا وفرنسا واليونان وإيسلنده ، وهناك يطلقون عليه اسم «جبل النار» أو « بوابة الجحيم » ..

وتعد الأعاصير من أخطر أسلحة الطبيعة فى عمليات القتل الجماعى والدمار الشامل ، وقد أطلق عليها بحق اسم «الشيطان القاتل» ، ومن نماذجها إعصار الهند

الذى اجتاح ولاية « أوتار براديسن » ـ الواقعة على الساحل الشرقى ـ فقتل ٢٠ ألف مواطن ، ودمر مايزيد على مليون ونصف مليون هكتار من زراعة الأرز والدخان ..

أما إعصار الهند سنة ١٨٦٤ فقد راح ضحيته مايزيد على ٣٥ ألف شخص ..

وقد توالت الأعاصير على سواحل أمريكا منذ سنة ١٩٠٠ بادئة بإعصار قتل ١٣ ألف شخص حيث ارتفعت مياه المحيط إلى أكثر من ٢٠ قدما ، وفى سنة ١٩٢٨ دفعت الرياح الشديدة مياه البحر الطاغية فقتلت ١٨٣٦ شخصا ، وبعد عشر سنوات هب إعصار ثالث على نيوانجلند ، وراح ضحيته ٦٠٠ شخص غير خسائر أخرى بشرية ومادية ..

وتقدم الطبيعة إلى جانب ذلك على مسرح أخطارها كارثة الفيضانات والسيول ، وقد حدث فيضان فى مصر ـ أكتوبر ٧٩ ـ حيث اندفعت سيول شديدة مدمرة فى الصعيد اجتاحت محافظات أسوان وقنا وسوهاج ومدن البحر الأحمر وقد اكتسحت ودمرت فى طريقها عددا من القرى والمنازل والزراعات والبشر.

* * *

وكذلك تلعب الأوبئة دورا خطيرا فى عمليات القتل بالجملة بسرعة وفظاعة وكثرة رهيبة ..

لقد أزيل ثلث سكان بريطانيا من فوق سطح الأرض إلى باطنها حيث دفنوا بسبب وباء « الطاعون » : « الموت الأسود » سنة ١٣٤٩ . ذلك الوباء الذى أصاب العالم بهستريا الخوف القتال ، كما حول المجتمع إلى عصابات نهب وقتل وفساد ..

وانتشر الموت الأسود فى الصين ثم امتد منها إلى أوربا فأدى إلى كوارث رهيبة ، حيث كان الموتى يحملون بالجملة على عربات ويدفنون فى الحفر جماعات بعد جماعات ..

وجاءت الحرب العظمى بمرض الأنفلونزا « الحمى الأسبنيولية » الذى قتل فى سنة واحدة عشرين مليون نسمة ، كما قتل وباء الكوليرا مئات الآلاف ، بدأ بالهند سنة ١٨١٧ والصين ١٨١٨ وسيلان ١٨١٩ ثم مورشيوس وشرق أفريقيا ١٨٢٠ ومنها إلى الفلبين والصين واليابان سنة ١٨٢٢ . وظهر فى إيران وروسيا والبلاد العربية سنة ١٨٢٣ وأقبلت موجة ثانية من الهند سنة ١٩٢٦ فجابت الصين وروسيا سنة ١٩٣٠ ثم ألمانيا وانجلترا سنة ١٩٣٢ ..

وحل هذا الوباء الفظيع بمصر وهونج كونج والفلبين بضراوة قضت على آلاف مؤلفة من الخلق ، وذلك كله برغم الاكتشاف العظيم الذى توصل إليه العالم البكتريولجى الشهير « روبرت كوخ » مخترع المصل الواقى ..

ولقد قتلت الكوليرا ١٥ ألفا من سكان النيجر ، ولم يعد الناس فيها وفى غيرها من بلاد الفقر والمرض والجوع يطلبون العلاج لأن الموت بالأوبئة فيها أخف وأهون وأسرع من الموت جوعا ! ؟

وفى سنة ١٩٨١ ظهرت الكوليرا فى جاكرتا عاصمة أندونيسيا فقضت على حياة ٩٤ مواطنا ونقل عدة آلاف إلى المستشفيات بين الحياة والموت ..

وقاتل آخر ضئيل الحجم لا يكاد يرى ولكنه قتل آلافا من البشر بمجرد لسعة بسيطة ، ذلك هو البعوض الذى يغزو العالم بعمليات قتل جماعية بسلالات من الملاريا . وقد ذكرت الاحصاءات أن هناك مليون طفل يموتون كل عام فى أفريقية ضحايا طفيل الملاريا الذى ينتقل للإنسان عن طريق البعوض ..

ولكن الأدهى من ذلك والأشد خطورة فى أيامنا هذه هو أن سلالات جديدة من البعوض لها قدرة على مقاومة العقاقير الطبية قد استطاعت أن تجد لها « وطنا قوميا » فى أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا ثم شرق ووسط أفريقيا عن طريق الهند ..

وقد أعلن الدكتور نيل براون خبير الملاريا فى المعهد القومى للبحوث الطبية بلندن أن هذا المرض يهدد ٢٠٠٠ مليون مواطن يعيشون فى أكثر من مائة دولة . وأن هناك الآن أكثر من ٣٥٠ مليون حالة إصابة بطفيل البعوض من السلالات القاتلة ..

كذلك استطاعت عصابة أخرى من عصابات الموت أن تدلف إلى الحياة اليومية لملايين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها بمقتضى رغبتهم .. متمثلة فى التدخين ..

لقد اكتشف العلماء أن الدخان قاتل ، ولذلك بدأت فى السنوات الأخيرة حملات لمنع التدخين ، ونقص عدد المدخنين فى البلاد المتقدمة ، وبدأ التدخين القاتل يزحف من أوربا وأمريكا إلى الشعوب المسكينة فى العالم الثالث ، واستطاعت سبع شركات دخان عالمية أن تفرض هذا الوباء وفق حملة إعلانية تكلفت فى سنة واحدة ألفين وخمسمائة مليون دولار للدعاية للسجاير..

وقد أثبتت الإحصاءات الرسمية العالمية أن ثلاثين مليون أمريكى يموتون سنويا من تأثير السجاير .. وتقول الإحصاءات إن التدخين أخذ ينخفض فى الولايات المتحدة أخيرا بحيث أصبح يوجد بين كل ثلاثة أشخاص شخص واحد فقط يدخن ..

* * *

ومازال عالمنا الحاضر يواجه أزمة مريعة تهدد الملايين بالموت وهى أزمة الجوع التى تفشت فى عدة أقطار يعيش فيها ملايين البشر على الكفاف ، بينما توجد أقطار أخرى مكتظة بالخيرات مشحونة بالمبتكرات العصرية التى تزيد من نعيم الحياة ورفاهية الإنسان .. هكذا مال ميزان الدنيا واندفع الوحش الكاسر المسمى بالجوع يفترس آلاف البشر ..

إن أحدث التقارير الدولية الذى أعدته هيئة الأمم المتحدة من الخبراء العالميين المحايدين ، والذى اشتهر بعنوان « الشمال/الجنوب » هو إنذار خطير بما يتهدد العالم من ويلات وأهوال إذا لم يسارع من بيدهم الأمر ــ من الدول الغنية ــ باتخاذ اجراءات عاجلة وحاسمة لإنقاذ الدنيا قبل فوات الأوان ..

قال هؤلاء الخبراء العارفون ببواطن الأمور إن عالمنا يواجه كارثة اقتصادية مريعة ــ بكل ماتعنيه الكلمة ــ تهدد سلام العالم وأمن البشر بصورة لم يسبق لها مثيل منذ كوارث الحرب العالمية الثانية ..

وقد تضمن التقرير مجموعة عملية من الحلول العاجلة لإنقاذ عدد من الدول الفقيرة التى يموت فيها الخلق من الجوع . ومن ذلك تقديم ما يماثل ثمانية آلاف مليون دولار سنويا من السلع الغذائية لمواجهة الجوع المتفشى فى عديد من الدول التى افترسها التخلف أو قضى عليها الغزو التترى بالتشرد والفاقة بلا غذاء ولا كساء ولاغطاء ..

* * *

ويتصاعد دور الحروب فى عمليات الموت بالجملة ، وقد بلغت الضراوة أقصاها فى عصر الحروب العالمية التى تتصارع فيها مجموعات من الدول ويتبادل خلالها ملايين الجنود والمدنيين عمليات القتل الجماعى والتدمير والإبادة ..

لقد فقدت البشرية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التى اشتهرت باسم « الحرب العظمى » : ٤٦,٢٠٩,٩٣٤ (ستة وأربعون مليونا ومائتان وتسعة آلاف وتسعمائة وأربعة وثلاثون نسمة) ، وفقا للإحصاءات الرسمية الآتية :

٩,٩٩٨,٧٧١	قتلى
٦,٢٩٥,٥١٢	جرحى (حالات شديدة)
١٤,٠٠٢,٠٣٩	أصيبوا بعاهات
٥,٩٨٣,٦٠٠	أسرى ومفقودين
١٠,٠٠٠,٠٠٠	ضحايا أمراض ناتجة عن الحرب

أما فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فقد فقدت البشرية مائة وثلاثة وعشرين مليونا ، على النحو الآتى :

٣٢,٠٠٠,٠٠٠	قتلى فى ساحات القتال
٣٠,٠٠٠,٠٠٠	عاهات تحول دون عمل
٢٦,٠٠٠,٠٠٠	قتلى فى معسكرات الإبادة
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	قتلى الغارات الجوية على المدنيين
١٥,٠٠٠,٠٠٠	طفل فقدوا آباءهم أو أسرهم

وبلغت الخسائر المادية فى تلك الحرب ٢٦ مليار دولار موزعة كالآتى :

١٢٨,٠٠٠,٠٠٠	دولار خسارة الاتحاد السوفيتى
٢٨,٠٠٠,٠٠٠	دولار خسارة ألمانيا
٢١,٥٠٠,٠٠٠	دولار خسارة فرنسا

٢٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار خسارة بولاندا
٦,٨٠٠,٠٠٠	دولار خسارة انجلترا

وبمراجعة خسائر الحرب العالمية الثانية يتضح أنها تعادل ثلاثة أمثال خسائر الحرب العالمية الأولى ، وأن ضحايا الحربين يتعدون ١٦٩ مليونا بين قتيل وعاجز ومشوه ، وأن خسائرها المادية حوالى ٣٦٠ بليون دولار.. وذلك كله قبل اكتشاف واستخدام القنبلة الذرية ، وقبل اختراع القنبلة الهيدروجينية .. والصواريخ عابرة القارات وأشعة ليزر.. وغيرها من أحدث مبتكرات التهلكة والدمار.. مما يعطى صورة قاتمة للمستقبل الرهيب الذى ينتظر البشرية إذا مانجح دعاة الحرب وتجارها فى إشعالها مرة أخرى على مستوى الدنيا ..

وفى أيامنا هذه ـ وبعد خمس وثلاثين سنة من استخدام القنبلة الذرية فى قصف مدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين ـ يقال إن غواصة أمريكية واحدة من طراز « يوسابدن » تحمل ١٦ قذيفة كل واحدة منها مزودة بعشر رءوس نووية .. يمكن أن تقصف عددا من المدن أكبر من مجموع المدن التى قصفت بالقنابل والمتفجرات فى ألمانيا واليابان طوال سنوات الحرب العالمية الثانية ..

وما غواصة يوسابدن إلا وحدة صغيرة من قوة التدمير التى تمتلئ بها ترسانات الأسلحة النووية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ..

وقد أعلن أخيرا وزير دفاع الولايات المتحدة أنه فى حالة وقوع هجوم سوفيتى بقنبلتين اثنتين على مواقع الصواريخ الأمريكية فإن ٢٢ مليون أمريكى سوف يلقون حتفهم ..

وأذكر أننى فى لقائى بالرئيس الرومانى نيقولاى شاوشيسكو ـ يوم أول

أغسطس ١٩٧٨ بمصيف نيبتون بمدينة كونستانزا على شاطئ البحر الأسود ـ حدثني هذا الزعيم النابه عن الاستعداد الرهيب لحلفي وارسو والأطلنطي . قال :

إن في أوربا اليوم : ثمانية ملايين جندي مسلح على أهبة الاستعداد و٤٥ ألف دبابة متطورة ، ١٥ ألف طائرة عسكرية ، وعشرة آلاف شحنة نووية .. وتلك أكبر قوة تدميرية أعدها الإنسان ليدمر بها دنياه ..

وهكذا أصبح الناس في عالم اليوم ، عصر التقدم العلمي والتكنولوجيا العصرية معرضين للموت بالجملة بأقسى وأفظع ماعرف من أسلحة الدمار والتهلكة بين ما تحدثه الطبيعة من زلازل وبراكين وأوبئة وفيضانات وأعاصير وجفاف وقحط .. وبين مايعده الإنسان المتحضر من أسلحة الحرب الفتاكة .. ما ظهر منها ومابطن ..

٥

هـؤلاء مـاتـوا بأيـديهـم

قاتلُ النفس ولو كانت له
أسخَطَ الله ولم يُرضِ البَشَر
شــوقي

يموت الناس عندما يحين أجلهم موتا طبيعيا أو نتيجة حادث .. أو لسبب من الأسباب العديدة للموت ، ومنها أن يسعى الإنسان لحتفه بظلفه ، أى يقضى على حياته بمحض إرادته ويقتل نفسه قاصدا متعمدا ..

وقد حرمت الأديان السماوية قتل النفس ، واعتبرته جريمة شأنها شأن قتل الغير ، فليست النفس ملكا حرا للإنسان يتصرف فيها كيفما يشاء وإنما هى ملك لله بارئها .. ثمة وديعة يعطيها الله عندما يشاء ويستردها وقتما يشاء ..

« ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »

(٢٩ م النساء ٤)

« ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

(١٩٥م البقرة ٢)

« ولا تيأسوا من روح الله »

(٨٧ك يوسف ١٢)

« ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق »

(١٥١ك الأنعام ٦)

(٣٣ك الاسراء ١٧)

وعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقول الزور »

وكما أن للموت الطبيعى صورة المتعددة وأسبابه العديدة ، فإن قتل النفس أو الانتحار له أسلحة مختلفة كما أن دوافعه وأسبابه تتعدد وتتنوع ..

إن الذين يقتلون أنفسهم إنما يؤثرون الموت على الحياة ويضعون بأيديهم خاتمة حياتهم خشية أن تمتد بهم أسباب الضيق والألم أو تقسو عليهم المحن والشدائد ، ومنهم من فقد ماله فى صفقة خاسرة ، أو أصابه الإخفاق فى امتحان أو مباراة ، أو حل به مرض مقعد ، أو ظلم فادح ، أو عصف به الحب ، أو وقع فى الأسر. فعندئذ يتولاه اليأس ويكره الحياة ويؤثر الموت بيده ، على حد القول المشهور : بيدى لابيد عمرو ..

فإذا ماحل البلاء ، وجلّ الخطب ، وران اليأس على النفس ، واستبد الشيطان بالعقل .. ضاعت الحيلة ، وعميت البصيرة ، وغاب المنطق ، وقضى الأمر ..

كثيرون يتمنون الموت فى لحظة حرج ، أو ضربة قدر ، مثل المجرم حين يقبض عليه متلبسا ، والزوجة التى تضبط فى فراش عشيقها ، والمقامر الذى أضاع برمية واحدة كل ما يملك ، والمريض الذى طال به المرض وعزّ عليه البرء .. والمسئول الذى اكتشفت خيانته وتبين ارتكابه .

ومن أشد مايتعرض له الشباب الضيق المبكر واليأس من الحياة بسبب سقوطه فى امتحان فلا تقوى النفس الضعيفة على الصبر ، ولاينزع الفكر المضطرب عن القنوط ، وقد انتشرت ظاهرة انتحار الشباب الراسبين فى العلم والفاشلين فى الحب

فذوت براعم كانت جديرة بالازدهار ، وضاع شباب كانوا معقل الأمل ومعقد الرجاء لو أنهم أنعموا الفكر ، واستعانوا بالصبر ، وقوّتهم روحهم على الضعف والاستخذاء والتسليم العاجل ..

وعن تلك الظاهرة التعسة قال أمير الشعراء شوقى :

رُبَّ واهى الجأش فيه قصف	مات بالجبن وأودى بالحذر
ليس يدرى أحدٌ منكمْ بما	كان يعطى لو تأنى وانتظر
فلك جار ودنيا لم يدم	عندها السعد ولا النحس استمر
قاتل النفس ولو كانت له	أسخط الله ولم يرض البشر

* * *

أما انتحار العشاق فصفحة مزدحمة على مر الزمن ومن قصصها المضحك والمبكى . وكثيرا ماخسر أحدهم فى الحب فأسرع ـ بدون وعى وإمعان ـ يطفئ بيده شعلة حياته .. بل ويحدث أن يتفق العاشقان على الموت معا فيضعا نهاية حبهما وحياتهما سويا ..

ولذلك يقال إن العشق الذى يزيد عن حد الميل والمحبة فيملك العقل ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة .. هو عشق مذموم ملعون يتحاشى عن مثله الحكماء ..

وقد سجلت كتب التراث العربى عددا من قصص صرعى الغرام وضحايا الحب ، ومن أشهرها ماروواه صاحب « نهاية الأرب » عن جميل بن معمر العذرى ، قال :

دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لى : ياجميل .. حدثنى عن بعض

أحاديث بنى عذرة فإنه بلغنى أنهم أصحاب أدب وغزل ، فقلت : نعم يا أمير المؤمنين . انتجعوا عن حيّهم ذات مرة فوجدوا النجعة بموضع نازح فقصدوه ، فخرجت أريدهم فبينما أنا أسير غلطت الطريق وجنّ على الليل ، فلاح لى باب فقصدته فورد علىّ راع فى أعلى جبل قد ألجأ غنمه كهفا فسلمت عليه فرد السلام وقال : أحسبك قد ضللت الطريق ؟ قلت : قد كان ذلك ، فأرشدنى وقال : بل انزل حتى تريح ظهرك وتبيت ليلتك ، فإذا أصبحت وقفتك على قصدك . فنزلت فرحب بى وأكرمنى وعمد إلى شاة فذبحها وأجّج نارا وجعل يشوى ويلقى بين يدى ويحدثنى فى خلال ذلك : ثم قام إلى كساء فقطع منه جانب الخباء ومهد لى جانبا ونزل جانبا خاليا .. فلما كان الليل سمعته يبكى ويشكو إلى شخص ، فأرقت ليلتى فلما أصبحت طلبت الإذن فأبى وقال : الضيافة ثلاث فأقمت عنده وسألته عن اسمه ونسبه وحاله ، فانتسب لى فإذا هو من بنى عذرة من أشرافهم فقلت : يا هذا : وما الذى أحلّك هذا الموضع ؟ فأخبرنى أنه كان يهوى ابنة عم له وتهواه ، وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها لقلة ذات يده ، وأنه زوجها رجلا من بنى كلاب فخرج بها عن الحى وأسكنها فى موضعه ذاك .. وأنه تنكر ورضى أن يكون راعيا لتأتيه ويراها ، وجعل يشكو إلىّ صبابته بها وعشقه لها حتى إذا جنّ الليل وجاء وقت مجيئها جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقع لها .. فلما أبطأت عن الوقت المعتاد وغلبه الشوق وثب قائما وأنشد يقول :

ما بال ميّة لا تأتى كعادتها	أهاجها طرب أم صدّها شغل
لكن قلبى لا يلهيه غيرهم	حتى الممات ولا لى غيرهم أمل
لو تعلمين الذى بى من فراقكم	لما اعتللت ولاطابت لى العلل
روحى فداؤك قد هيجت لى شجنا	تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لو أن عادية منى على جبل	لزال وانهد من أركانه الجبل

ثم قال : يا أخا بنى عذرة ، مكانك حتى أعود إليك ، فأبطأ حتى يئست من رجوعه ، ثم أقبل وعلى كتفه شىء محمول ، وقد علا شهيقه ونحيبه فقال :

يا أخا بنى عذرة هذه ابنة عمى أرادت أن تأتينى فاعترضها أسد فافترسها ، ثم وضعها عن كتفه وقال : على رسلك حتى أعود إليك ، ومضى فأبطأ حتى يئست من رجوعه ، ثم أقبل ورأس الأسد على يده ، فألقاها ، وجعل ينكت على أسنان الأسد ويقول :

ألا أيها الليث المخيل بنفسه ... هلكت وقد جرّت يداك لنا حزنا
وغادرتنى فردا وقد كنت آلفا ... وصيرّت بطن الأرض ثمّ لنا سجنا
أقول لدهر خاننى بفراقه ... معاذ إلهى أن أكون له خدنا

ثم قال : يا أخا بنى عذرة إنك سترانى بين يديك ميتا ، فإذا مت فاعمد إلىّ وابنة عمى فأدرجنا فى كفن واحد ، واحفر لنا جدثا واحدا ، وادفنا فيه ، واكتب على قبرى هذين البيتين :

كنا على ظهرها والعيش فى مهل ... والشمل يجمعنا والدار والوطن
ففرّق الدهر والتصريف ألفتنا ... وصار يجمعنا فى بطنها الكفن

.. ثم عمد إلى خناق فطرحه فى عنقه ، فناشدته الله تعالى ألا يفعل فأبى وجعل يخنق نفسه حتى سقط ميتا .

* * *

ومن أشهر المحبين المنتحرين فى التاريخ أنطونيو قائد روما ، وكليوباترة ملكة مصر ..

كان أنطونيو أحد قائدين متنافسين على حكم روما ، وثانيهما أوكتافيو ، وقد

انتهت بهما أدوار الصراع وساحات الحرب إلى مصر ، فانضمت كليوباترة إلى أنطونيو الذى شغفها حبا وبهرته أنسا ولعب بعقله غرامها .. ودارت رحى المعركة وانتصر أوكتافيو ، وفر أنطونيو هاربا شريدا ثم بلغه أن كليوباترة انتحرت حتى لاتؤخذ ملكة مصر أسيرة يطاف بها فى شوارع روما .. فدارت به الدنيا وأظلمت فى وجهه الحياة وقرر أن يقضى بيده على حياته ، على نحو ماوصفه أمير الشعراء شوقى فى « مصرع كليوباترة » :

انتحرتْ .. ياللخبر ويالقسوة القدر
إن الأمور انتقلت من خطرٍ إلى خطر
واخجلتا من قولهم انتحرت وما انتحر

ثم صارح صاحبه أوروس بعزمه على الانتحار :

فمالت بنا الدنيا فصرنا بموضعٍ عزيزٍ على الأبطال بالذلّ مشعر
أوروسُ ألم تفهم هو الذل فاشفنى بضربة سيفٍ أو بطعنة خنجر
فإنك حرّ إن فعلت وفائزٌ بسيفى وأثوابى ودرعى ومغفرى

.. ولكن الجندى الوفى أبى أن يطعن سيده التعس فى هذا المشهد الحزين ولم يجسر على إطاعة أمره وقبول عطاياه .. وإنما جاد أوروس بحياته تضحية ووفاء لقيصر :

لقد جاد لى بالسيف والدرع قيصر وجُدت بأيام الحياة لقيصر

.. وهنا ، تغلب أنطونيو على ضعفه وقوى على تردده ، وختم حياته بيده :

أوروس عفوا قد ذهبت ضحيةً وجَنَى عليك تردّدى الممقوت
فعلمت منى كيف يجبن قيصرٌ وعلمت منك العبدَ كيف يموت

.. وأغمد خنجره فى صدره وسقط ميتا ..

أما كليوباترة ، فقررت هى الأخرى أن تودع الحياة خشية أن يلحقها ذل الأسر وعار الانكسار .. غير أنها كانت مشغولة بالطريقة التى يمكن بها أن تموت بغير ألم .. واختارت لدغة الأفعى .. وراحت تسأل عن مدى ماسوف تلقاه من آلام ، وهل يبقى جمالها أم يذوى ، ويستمر سحر جفونها أو يذبل ! ؟

وفى الحوار الرائع الذى صممه أمير الشعراء وصف نهاية كليوباترة وهى تحاور كبير كهانها :

ولكن أبى هل يصان الجمال

فيجيب	:	نعم لا يحول ولا يندثر
فتسأله	:	وهل يطفأ اللون ؟
فيجيب	:	لا بـــل يضــىء
		كما رفّ بعد القطاف الزهر
فتسأله	:	وهل يبطل الموت سحر الجفو
		ن ويبلى الفتور ويفنى الحور
فيجيب	:	كعهد العيون بطيف الكرى
		إذا الجفن ناء به وانكسر
فتسأله	:	وعضــة النــاب ؟
فيجيب	:	.. وخـــز أخــف
		وأهون من وخزات الإبر

.. وبينما هما فى ذلك الحوار جاءوا بجثة حبيبها أنطونيو وهو يعانى سكرات الموت ويلفظ آخر أنفاسه ، ثم تسمع بمجىء القائد المنتصر أوكتافيو ليتحقق من

موت غريمه ويحاول إغراء كليوباترة بأن تصحبه إلى روما ..

ولكن كليوباترة كانت قد قررة مصيرها واختارت سلاحها ، فمدت يدها إلى مكمن الموت وأخذت الحية الرقطاء ـ التى ارتبطت بصورتها فى التاريخ ـ ودفنتها فى صدرها :

هلمّى الآن منقذتى هلمى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
حياة الذل تدفع بالمنايا تعالى حية الوادى تعالى

.. وهكذا انتهت حياة العاشقين الشهيرين هربا من الذل وفرارا من الشقاء .

* * *

ومن أحدث صور انتحار الحب أمام الهزيمة فى الحرب صورة الرجل الذى كان يهز بكلماته عروش الملوك ومقاعد الرؤساء ثم دفع بثلاثة أرباع العالم إلى جحيم الحرب العالمية الثانية .

إنه : أودلفر هتلر .. مستشار ألمانيا ومبتكر النازية ، الذى أشعل الحرب وقضى ثلاث سنوات يدفع عجلة النصر الخاطف فى شتى ربوع أوربا حتى دارت عليه الدائرة ، وتحولت نيران الفتك والدمار فأحاطت بشعبه وبلده وحاصرته جيوش الحلفاء من كل فج تحرق وتقتل وتدمر ..

.. فلما صار الخطر قاب قوسين أو أدنى قرر هتلر مصيره ومصير عشيقته ايفا براون ..

كان هتلر يقود بنفسه معركة برلين من مخبئه تحت دار المستشارية ، وقد تمكن السوفييت من خداع حلفائهم الغربيين ودخلوا برلين قبلهم لكى يرفعوا العلم الروسى

على برلين ويظفروا بالغنيمة الكبرى : أدولف هتلر وكبار معاونيه .. أحياء أو أموات .

ولما عجزت المقاومة الألمانية عن مواجهة الحشود الروسية التى ضمت ١٣ جيشا و٣٠ ألف مدفع تدك العاصمة الألمانية وفى أثرها الموت والخراب رفض هتلر نصائح معاونيه بالتوقف عن القتال وإعلان الاستسلام ..

وقال هتلر لرئيس أركان حربه ماريشال كيتل :

« سوف أدافع عن برلين حتى النهاية ..
إما أن أكسب هذه المعركة لعاصمة الرايخ ، أو أسقط كرمز للرايخ .. »

وعندما أصبحت الدبابات الروسية على مسافة ميل واحد من مقر قيادة هتلر ، وظهرت النهاية أخذ يضع خاتمة حياته مع عشيقته إيفا براون ، فأملى وصيته ثم عقد قرانه عليها .. وبعد انتهاء مراسم الزواج جلس هو وعروسه نحو ساعة مع أقرب وأخلص الناس إليه .. جوزيف جوبلز وزير الدعاية وزوجته ماجدا .. وقال هتلر :

« إن الموت بالنسبة لى لايعنى إلا الحرية ..
الحرية من القلق ومن حياة بالغة الصعوبة ..
أما وقد بلغت الأمور هذا الحد فقد انتهى كل شيء ..
وداعاً » .

ودخل هتلر وزوجته إيفا إلى غرفة أعدت إعدادا خاصة .. وانطلقت رصاصة ثم رصاصة أخرى من فوهة مسدس .. ودخل الأتباع الخصوصيون فوجدوه مسجى فى مقعده ووجهه مغطى بالدماء ، وإلى جانبه إيفا براون جثة هامدة ..

وقد تم لف الجثتين بأغطية ووضعتا فى خندق أمام مدخل المخبأ حيث سكب عليهما البنزين واشتعلت النيران ..

وهكذا أنهى حياته بيده مفجر الحرب العالمية الثانية التى حصدت أرواح مائة وثلاثة وعشرين مليونا من البشر ..

* * *

وقد أثر عن كبار العسكريين أنهم يفضلون الانتحار إذا ماحلت بهم الهزيمة أو أطبق عليهم الحصار والأسر ، والمثل الأعلى عند الجندى هو : النصر أو الشهادة ..

والجندى حين يقتل فى معمعان الحرب يصبح شهيدا عند ربه فاديا وطنه وذويه ..

والجندى الحق يفضل الموت على الذل ، ولهذا كان بين الجنود من يضع حول معصمه أو رقبته حلية نقش عليها :

« مات .. قبل أن يلحقه العار »

مثل هذا القول قاله دكتاتور آخر وبطل من أبطال الحروب ، نابليون بونابرت :

« ليس الموت شيئا يؤبه له إنما الحياة مع الهزيمة هى الموت كل ساعة »

وقد بكى خالد بن الوليد وأبكانا معه لأنه لم يمت فى ساحة الوغى بطلا شهيدا كما كان جديرا بسيف الله المسلول ، فلا يلقى نهايته على فراشه ، كما يموت البعير ..

* * *

وكان من تقاليد البحرية أن قائد السفينة التى تصاب فى المعركة وتغرق فى البحر ألا يحاول النجاة بنفسه وإنما يلقى حتفه معها غرقا فى الأعماق ..

وقد حدث فى بداية الحرب العالمية الثانية أن إحدى الغواصات الألمانية أصابت حاملة الطائرات الانجليزية «كارجيس» فما كان من قبطانها الأدميرال «ماكينج جونس» إلا أن قرر مصيره غرقا مع سفينته ، حتى إذا بلغت هامته الماء وبدأ يغرق ألقى بقبعته على صفحة الماء تحية للبحر وإجلالا للموت الذى حمله حيًا وضمَّه ميتا ..

وفى تحية هذا الحدث قال الملاح التائه الشاعر على محمود طه :

هوى بك الفلك إلا هامة رفعت	لها من المجد إعظام وإكبار
واستقبل البحر صدرا حين لامسه	كادت عليه جبال الموج تنهار
وغاب كل مشيد عند قبعة	ذكرى من الشرف العالى وتذكار
ألقيتها فتلقىّ الموج معقدها	كما تلقى جبين الفاتح الغار
نزلتما البحر قبراً حين ضمكما	رفّت عليه من المرجان أشجار
نام الحبيبان فى مثواه واتّسدا	جنباً لجنبٍ فلا ذل ولاعار

* * *

٦
رب موت أشرف من حياة

لم يَمُتْ من له أثر
وحياة من السير
إنما الميت من مشى
ميّت الخير والخبر

شوقي

فى الناس أمثلة تدور حياتها كـمماتهـا ومماتها كـحـيـاتها

..ورب حيّ لا حسّ عنده ولا أثر له ولا خير يرجى منه

ورب ميت يحيا بذكراه الطيبة وآثاره الباقية وأعماله الخالدة

روى أن النبى صلوات الله عليه أوصى صحابته :

قال : إياكم ومجالسة الموتى

قالوا : ومن هم ؟

قال : الأغنياء

.. وفى الآية الكريمة :

«والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» .

(٣٤ م التوبة ٩)

وإن مثل الأغنياء البخلاء كمثل الأحياء الجهلاء .

روى أن حكيما قال للحاكم :

إننى أعرف عشبا فى الجبال إذا ركّب منه دواء فشرب منه ميِّت ارتد حيا ..

فعجب الحاكم وأمر بإجراء تجارب ليتبين صحة هذا القول . ولكن التجارب لم تسفر عن شيء ، فاستدعى الحكيم يستوضحه ..

قال الحكيم :

أما الجبال فهى العلوم

أما الموتى فهم الجهال

وأما العشب فكتاب اسمه «كليلة ودمنة»

* * *

إن الحياة عقيدة وجهاد ، وتبعات وواجبات ، فإذا اختل هذا المعنى أو انعدمت وسائله فى إنسان فهو لم يعد حيا يرجى بل غائبا ينسى أو شقيا يعيث فى الأرض فسادا .

والناس صنفان : موتى فى حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء
تأبى المواهب فالأحياء بينهم لا يستوون ولا الأموات أكفاء

وإذا ما عاش الإنسان على غير ما أرادته سنة الحياة بين سعى ونفع وخير للأهل والوطن والإنسانية فقد تخلف القاعد ونأى الجاهل ، وما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط ..

هل يعتبر حيا ذلك الإنسان البهيم الذى ضل الطريق القويم ومضى فى غيه يركب الشر ويأتمر بالشيطان ، فيسرق ويقتل ويظلم ، ويرتكب الموبقات ، ويستهين بالقيم والأخلاقيات التى جاهدت البشرية على مر الزمن لإعلائها والتمكين لها ؟ .

وهل يكون ميتا ذلك الإنسان الذى ترك الدنيا وبقيت آثاره ظاهرة فى

نفوس أهله وقد أصلح حالهم ، وبقيت تعاليمه فى أذهان تلاميذه ، واستمرت آثاره محفوظة لدى بنى وطنه .. ألا إن أثره باق وفضله مقيم ؟

حين يموت الإنسان يفقد الناس شخصه ويحتفظون بآثاره ، فليس للموت سلطان عليها لأنها من عناصر الحياة والبقاء ..

فى ذكرى الزعيم الخالد سعد زغلول ، قال السياسى الأديب مكرم عبيد فى مرثية رائعة :

«اذكروا اليوم سعدا فى مجده كما ذكرتموه بالأمس ميتا فى لحده» .

«فالميت حىّ لديك إذا ذكرته والحى ميت لديك إذا نسيته» .

وقال فى موضع آخر :

أيها الحى الميت .. أنت عبد
ويا أيها الميت الحى .. أنت سعد

وهكذا ، كلما عظم الإنسان فى حياته بقى شأنه عظيما وأثره خالدا بعد مماته ، وكأنما هو مستمر فى الوفاء والعطاء ، فإذا ما مات لنفسه فقد استمر يعيش لغيره ..

ما القول فى الأب العاقل الذى لم يشغل حياته بأفكار الثراء أو المتعة أو الشهرة وإنما آثر تربية أولاده فأحسن تعليمهم وأتقن تربيتهم حتى إذا بلغوا مبلغ الشباب أخذوا دورهم فى حياة مجتمعهم وبلدهم بالإخلاص والعلم والعمل ؟ . فإذا مات الأب .. أليس غرسه مستمرا وأثره باقيا ؟ .

وما القول فى المعلم العارف بمسئوليته الأمين على رسالته ، وقد واصل السعى وبلغ الغاية فى تعليم تلاميذ وتوجيه مريديه ، حتى أصبح منهم رجال

العلم والطب والهندسة والتجارة .. هل انتهى المعلم بانتهاء حياته أم بقى اسمه حيا ، وذكراه مقرونة بالتقدير العام والاحترام ؟ .

ورجل السياسة الوطنية الذى التزم بالصدق فى القول والإخلاص فى العمل وجعل الجهاد بغيته وتحقيق آمال شعبه غاية غاياته .. هل انتهت رسالته بموته وتوقف جهاده عند لحده .. أم بقيت نظراته سائدة ، وتعاليمه نافذة ، واسمه مشرقا فى ساحات الجهاد والفضل .

وهكذا الطبيب الحجة ، والاقتصادى القدوة ، والجندى الباسل ، والأب الفاضل ، والمعلم القدير ، والحاكم النيّر .. كل منهم يعيش حياته وما بعد مدى حياته ..

وقد لا يعرف الرجل جيدا فى أثناء حياته ، وقد يجهله القريبون منه ، ولكنه يلمع بعد مماته ، وينتشر فضله ، ويذيع خبره ، ويزداد تقدير الناس له ، وتصبح ذكراه حياة ونورا وخيرا .

فى هذا المجال تحدث فلاسفة وعلماء وشعراء : إن الموت لا يحجب الفضل ولا يخفى المكرمات . وقال شوقى أمير الشعراء :

ارفع لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثان

وقال :

لم يمت من له أثر   وحياة من السير

لهذا فإننا نحن المصريين نذكر خوفو الذى بنى الهرم الأكبر دليل عظمة عصره وقوة حكمه ، ومينا الذى وحد الوجهين البحرى والقبلى ، وجعل مصر وطنا واحدا ، وأحمس الذى طرد الهكسوس من مصر ، ورمسيس الثانى

الذى ثبت دعائـم الاستقلال وجعل مصر أمة مرهوبة الجانب وافرة الغنى ، وتحتمس الثالث الذى أطلق عليه المؤرخون العصريون لقب «نابليون الشرق» نظرا لما كان عليه من كفاءة فى القيادة وعبقرية فى الحرب ، وقد جعل مصر أعظم امبراطورية فى زمنه .

وهؤلاء .. مضى على عهدهم آلاف السنين ، وإنهم لمن الخالدين .

كما أننا نحن العرب سيبقى فى تاريخنا وفى فكر حاضرنا ومستقبلنا تلك الشخصيات العظيمة الخالدة التى فتحت الأمصار أمام الإسلام ، ومدت الوطن العربى من المحيط إلى الخليج : سعد وخالد وعمرو وأسامة النجوم اللوامع فى ميدان الجهاد ، وكذلك «أبو بكر فى أمانته» و«عمر فى عدالته» و«على فى فقهه» ، ونذكر أقطاب الشعر بدواوينهم التى تحتل مكتبات العالم : المتنبى وأبو تمام وأبو العلاء وامرؤ القيس والبحترى وأبو نواس وباقى تلك القائـمة من الشعراء الأماجد .. ومثلهم عشرات الشخصيات العظيمة فى كل علم وفن مازالت تعيش بين ظهرانينا ، نأخذ عنهم ونتمثل بهم ونقتبس من نور علمهم ودرّ كلمهم ..

ونذكر العلماء العرب الأجلاء الذين برزوا فى شتى ميادين العلم ، وأثروا الحضارة ، وقدموا للدنيا صفحات اجتهاد ، وخبرات عقول ، وثمرات معرفة فى العلوم والقانون والرياضة والفلسفة ..

كذلك نحن نذكر بالتقدير والفخار رجال مصر الحديثة فى شتى ميادين العلوم والمعارف والفنون والآداب . ولن تغيب عنا أسماء وأعمال علم دينى جليل مثل الشيخ محمد عبده ، ورجل اقتصاد مثل طلعت حرب ، وزعيم وطنى مثل مصطفى كامل ، وشاعر عظيم مثل شوقى ، وسيدة غناء مثل أم

كلثوم ، وجراح نابغة مثل على إبراهيم ، وقانونى قدوة مثل عبد الرازق السنهورى ، وعالم متفوق مثل على مشرفة ، ولاعب كرة فذ مثل حسين حجازى ، وأديب عملاق مثل عباس العقاد ، ومثال مقتدر مثل محمود مختار ..

* * *

إن حياة العمالقة وحياة العاديين من الناس تختلف فى العطاء ومن ثم تختلف فى طول البقاء . إذ تستمر حياة الأكفاء المبرزين حتى بعد موتهم ، وتقصر حياة المتخلفين حتى وهم يعيشون طويلا ، وإذن فليست الحياة الحقة بطول العمر وإنما بما يؤدى فيها من أعمال ..

وقد ظهرت أفكار فى مراحل عديدة من التاريخ ترى أن تكون الحياة للأكفاء ، ومن ذلك «فلسفة القوة» التى تذهب إلى عدم جدوى حياة الضعفاء وأن المرضى بأمراض معقدة لا حق لهم فى الحياة ، وعلى سبيل المثال ينادون بتعقيم المرضى الميئوس من شفائهم والمشوهين ، وأن تتسع أحكام الإعدام لتشمل المصابين بالأمراض المستعصية ، والمتخلفين عقليا ، كما يعامل المجرمون وأعداء الإنسانية ..

غير أن الصحيح الذى لا خلاف عليه ـ دينا وإنسانيا ـ هو أن البشر لا يملكون حق الحياة أو الموت ، فتلك حكمة الخالق الأعظم ، هو خالق الجميع من أصحاء ومرضى وصالحين وطالحين .

وقد يقول قائل : إنهم يقتلون الخيل إذا أصابها جرح نافذ أو مرض عضال . رحمة بها حتى لا يطول عذابها .. فلماذا لا يطلق الرجل رصاصة

واحدة على زوجته العزيزة حتى يريحها من عذاب المرض والذلة ! ..

قال القضاء : إنها عملية قتل ، مهما اتسمت بالرحمة .

وأحدث ما جرى فى هذا المضمار ذلك الاستفتاء العام الذى أعلن فى ألمانيا ، وكان موضوعه :

هل يجوز للطبيب أن يساعد مريضه الميئوس منه فى التخلص من الحياة ؟
وكانت الإجابة الصادرة عن الهيئات الطبية :

لا ....
إن الطبيب يعالج مرضاه لقتل المرض وليس لقتل المريض ! .

ومن الحوادث الشهيرة التى تناقلتها متعدد المجالس والمجتمعات فى شتى أنحاء العالم تلك الحادثة التى تعرضت لها فتاة أمريكية جميلة ذكية تدعى «كارين آن كونيلان» أصيبت إصابة مفاجئة فى المخ فأتلفته تماما ولم يعد يرجى لها علاج .. فرفع والدها قضية أمام المحكمة الدستورية فى الولايات المتحدة ضد الأطباء الذين يعالجونها ، لإخراجها من المستشفى ورفع الأجهزة التكنولوجية التى أبقتها على قيد الحياة طوال خمس سنوات كاملة ، وطلب أن تترك ابنته لتموت موتة طبيعية .. وكسب الأب القضية وأخذ ابنته إلى المنزل إلا أنها استمرت على قيد الحياة وظل قلبها ينبض دون أية مساعدة من الأجهزة الالكترونية ! ؟

وبدأت مناقشات واسعة المدى واحتدمت الآراء حول حق الإنسان فى الموت لم تصل إلى نتيجة حاسمة لأن الدستور الأمريكى لم يتضمن ــ ضمن الحقوق الممنوحة للمواطن الأمريكى ــ « حق الموت » !

كذلك اشتهرت قصة الطبيبة الهولندية «دكتور جيراتر ويدا بوفن» التى وقفت حائرة متواصلة الحزن وهى ترى أمها العجوز المشلولة وهى تعانى آلاما مبرحة .. والموت على مقربة منها ولكنه لا يتقدم بل يتركها فريسة أوجاع وآلام لا نهاية لها .. كما يفعل القط بالفأر قبل افتراسه ! .

إن الأم المسجاة لم تعد تطيق الحياة وهى تحاول الانتحار ولكنها عاجزة ، وهى تسترحم ابنتها لكى توقف العلاج وتتركها تموت .. وأخيرا اضطرت الطبيبة إلى إعطاء أمها جرعة مهلكة أثناء نوبة إغمائها .. وماتت الأم ، ورفض مدير المستشفى أن يوقع شهادة وفاتها .. ومن ثم واجهت الطبيبة القاتلة القضاء وحكم عليها بالسجن جزاء ممارسة جريمة «القتل بدافع الرحمة» !

وقد اعترف الجراح العالمى بيورن آبسن أنه كانه يقوم من تلقاء نفسه بإغلاق جهاز التنفس أو إعطاء جرعات زائدة من المورفين للمرضى الميئوس من علاجهم لأنه كان مقتنعا تماما بأن استمرار علاجهم لن يؤدى إلا إلى إطالة عذابهم ..

إن أحدث صحية دوت فى هذا المجال انطلقت من مصر وتردد صداها فى شتى أنحاء العالم .

لقد دعت «جمعية الطب والقانون» فى مصر مجموعة من الأطباء والمفكرين ورجال الدين والقانون إلى مؤتمر عالمى بمقر جامعة الإسكندرية فى ختام سنة ١٩٧٥ وقد طرحت فيه للمناقشة قضية «القتل إشفاقا» أو «موت الراحة» ..

هل من حق الطبيب أن يعجّل بموت مريضه ؟

.. إنقاذا له من عذاب لا أمل على الاطلاق فى وضع نهاية له ؟

أى لا أمل فى شفائه ..

وسواء كان هذا الإنقاذ مطلوبا من المريض المتعذب التعس أو من أهله وذوى قرباه ؟

لقد تكلم رجال الدين ، من القرآن الكريم :

«إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير»
(٤٣ ك ق ٥٠)

«هو الذى يحيي ويميت» (٦٨ ك غافر ٤٠)

«لا إله إلا هو يحيي ويميت»
(١٥٨ ك الأعراف ٧)

«وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا»
(١٤٥ م آل عمران ٣)

وقال الأطباء العالميون الثقات :

إن التعجيل بالوفاة ـ مهما كانت دواعيه عند المريض أو الطبيب ـ يعتبر جريمة قتل عمد ومع سبق الاصرار.

وليس لآلام المريض أو شفقة الطبيب أو دموع الأهل أن تبرر هذا التصرف أو تضع له وصفا غير أنه «جريمة قتل».

هكذا قال مائة طبيب ومفكر ورجل دين وأستاذ قانون. الجميع قالوا : لا.

ولم يجد «الموت رحمة» من يناصره فيوافق على قتل مريض متعذب ميئوس من شفائه ..

ومن أحدث وأشهر قضايا الصراع بين الحياة والموت ما حدث للجنرال « الكوديللو فرانشيسكو فرانكو » رئيس دولة أسبانيا وحاكمها المطلق طوال أربعين سنة .

كان الجنرال فرانكو قد بلغ سن الثالثة والثمانين من عمره حين دهمه مرض الموت وأخذت إشاعة موته تنطلق فى كل يوم بينما كان أهله ومواطنوه يبكون من أجله ، ويحزنون لما يحل به من عذاب ، ويتعجلون موته رحمة به . .

وقد وقف آلاف الناس حيارى بين الآلام الفظيعة التى يعانيها ، والعمليات الجراحية المتوالية التى جادت بها مبتكرات العلاج العصرى . . وراحوا يصرخون فى وجوه الجراحين والأطباء المعالجين مطالبين بوقف المشارط والإبر التى مزّقت أحشاء الدكتاتور العظيم وبترت ثلثى جهازه الهضمى !

قالوا وهم يدركون عذاب المرض : دعوه يموت .. لا نريد أياما أخرى من العذاب لرجل فارق الحياة فعلا . .

ولقد تتابعت الساعات والأيام والطب يقدم المعجزات على حساب الآلام التى تحل بالجنرال فرانكو ، وهو راقد لا يدرى شيئا بينما حوله أثنان وعشرون طبيا وجراحا عالميا يتابعون أجهزة رسم القلب ورسم المخ ، وهما العنصران الوحيدان اللذان ظلا يقاومان بعد أن كفت جميع الأعضاء ، وتوقفت عن العمل نهائيا . . وبعد أن تعرض المريض المحتضر لعدة أزمات قلبية ونزيف معوى حاد . .

وتحركت الجماهير ليلا حاملة المشاعل ، ودارت حول مقر المريض الكبير تصرخ وتنادى :

الرحمة .. الرحمة .. دعوه يموت

وبقى الجنرال فرانكوا ميتا إلا عقله زهاء شهر حتى مدّ الموت يده وأخذ ما بقى منه .. وخمد القلب الذى نبض بالسلطة والشهرة ، وتوقف العقل الذى حكم أسبانيا حكما مطلقا على مدى أربعين سنة .. وفاضت روحه فانتهت حياته وانتهى نظام حكمه .

* * *

وهناك جريمة قتل أخرى ارتكبت لسبب غير رحمة المريض وإنما للخلاص من إنسان «موته خير من حياته» ! .

بمعنى أنه قد يبرق فى خاطر أحدهم :

لماذا يعيش هذا الرجل الذى عاش أرذل العمر بلا فائدة ترجى منه ؟

ولماذا يبقى المجرم السفاح حيا وهو يواصل إيذاء غيره وتدنيس مجتمعه ؟ ..

مثل هذا الخاطر سيطر على ذهن أحد الشبان وهو يرى مرابية عجوز تكتنز الذهب والفضة .. وتقدم المال للمعوزين والمأزومين بفوائد ترهقهم وتجعل حياتهم جحيما .. لماذا تعيش هذه الحشرة مصاصة الدماء .. ولماذا تبقى على قيد الحياة إلا للشر وللشقاء ، بينما أموالها الغزيرة حبيسة خزانتها .. وهى تكفى لعلاج مئات المرضى وإطعام مئات الجوعى وإنقاذ مئات الأسر التى تعيش فى حومة البؤس والحرمان ؟ .

فى قصة «الجريمة والعقاب» ــ إحدى روائع الروائى الروسى الشهير دوستويفسكى ــ نجد طالبا فقيرا هو «راسكو لنيكوف» يذهب لرهن ساعة قديمة مصنوعة من الفضة ورثها عن أبيه ، وهو يريد شراء الدواء لأمه . وكانت المرابية العجوز الشمطاء العنيدة : ايفانوفا : تشتد فى معاملة زبائنها

البؤساء وتعطى ربع قيمة الشيء الرهين وتستوفى فائدة تبلغ سبعة من المائة فى الشهر الواحد. ولا يمكن أن تتنازل عن تأخير يوم واحد ولا عن « روبل » واحد .. رغم ما تضمه خزائنها من أموال طائلة ، ومجوهرات ثمينة ، وسبائك من ذهب .. وقد اشتهرت ايفانوفا بأنها عنيدة وقاسية وجشعة مهما كانت حالة البؤس التى تنخر فى عظام المساكين الذين يلجأون إليها ..

ررأى راسكو بنظرة خاطفة مالدى هذه العجوز الخبيثة من أموال ومجوهرات .. وتعجب أن المجتمع يضم عشرات الأسر الفقيرة ومئات التلاميذ المحرومين والمشرفين على الضياع .. والمرضى .. وضحايا الجوع .. ثم نظر راسكو إلى حالة أسرته المسكينة : عجزه هو عن الاستمرار فى التعليم .. وعدم قدرته على الزواج ممن يحب .. إنه لا يستطيع أن يحضر الطبيب ليعالج أمه المريضة .. إن أخته الشابة الجميلة لا تستطيع الزواج من الشاب الذى تحبه ويحبها .. إن رجلا غنيا عجوزا سيئ الخلق يطمع فى الزواج من أخته فيقبض عنق سعادتها ويوردها مورد الحسرة والضياع ..

وأخذ فكره يسرح فيما يمكن إقامته من مشروعات تستخدم عددا كبيرا من الشباب ، وإنقاذ مئات الناس من الفقر والمرض والذل .. إن أموال المرابية العجوز تستطيع أن تنقذ مئات الناس المساكين ؟

واتخذ راسكو قراره :

قَتْل المرابية العجوز وتكريس أموالها لخدمة الإنسانية المعذبة .

وسأل راسكو نفسه :

هل جريمة تافهة كهذه لا تساوى آلاف الحسنات التى ستنجم عنها ؟ ..

ولخص فكرته كالآتى :

«موت امرأة عجوز ظالمة لا تستحق الحياة .. لإنقاذ مئات الناس لكى يعودوا إلى الحياة» .

وخيل إليه أنه يسمع أصواتا ترن فى أذنيه :

إن المرابية العجوز الشريرة غير جديرة بالحياة ! .

ثم سمع خاطرا آخر يومض فى رأسه :

مالك أنت وهذه المرابية ، مادام قد بقيت فى عمرها بقية ، فمن حقها أن تعيش حتى يحين أجلها ..

ولكن راسكو أبعد هذا الخاطر على الفور واتخذ قراره بتنفيذ «جريمته الصغيرة» .. وأخفى السكين فى ثوبه المتهالك ومضى إلى مسكنها الحقير .. فقتلها ، وملأ جيوبه بأموالها ، ثم بارح مسرح الجريمة دون أن يشعر به أحد ..

وذهب إلى جهة خالية فدفن الأموال والجواهر ، وتوجه إلى الشاطئ وألقى سكينه مع التيار ، وتخلص من كل معالم الجريمة ..

وفى اليوم التالى قرأ فى الصحف خبر مقتل المرابية العجوز والقبض على أحد العمال بتهمة قتلها ! ؟

ووجد راسكو أنه أصبح حرّا لا تشوبه شائبة أو شبهة ، وأنه بعيد تماما عن هذه الجريمة .

واستطاع راسكو أن يأكل لأول مرة أكلة دسمة ، وأن يشترى ملابس جديدة ، وأن يأتى لأمه بالطبيب والدواء ، وأن يفض أزمة أخته الجملية التى كان يطمع فيها رجل عجوز يحاول أن يقتنصها من خطيبها الشاب الذى تحبه ! .

ولكن ما توقعه راسكو تبخر فجأة حين جاءت أخته الشابة المعذبة «دونيا» ، وقد أثار دهشتها ماجدّ على محيط أسرتها واشتمت رائحة جديدة عليها ..

إن راسكو يؤكد لها أنها سوف تتزوج بمن تحب ، وأنه سيجعل لزواجها احتفالا باهرا ..

وبدلا من أن تسعد دونيا بهذا الخبر المدهش ، فإنها وجمت .. ثم أخذت تستمع بأسى للأخبار المفاجئة :

راسكو يرتدى ثيابا جديدة ..

أمها تجد الطبيب بين يديها والدواء إلى جانب فراشها ..

أكل وفير فى البيت :

راسكو يؤكد لها أنها لن تتزوج العجوز الطامع فى جمالها وإنما ستتزوج الشاب الذى يبادلها الحب ، ويعمل لها فرحا باهرا .. ولياليى ملاحا ؟ ..

وأخذت دونيا تحاور أخيها راسكو وتستدرجه حتى باح لها بسرّه ، وصارحها بجريمته ، وأكد لها أن العناية لاحظته فلم ينكشف أمره ، فقد قتل مرابية عجوزا سيئة الخلق والخلقة .. وأنها كانت تستحق القتل ..

.. ووقعت الأخت المسكينة مغشيا عليها ..

وعندما أفاقت واستعادت وعيها وجدت أخاها يعطيها المال ويعدها بالسعادة .. ولكنه فوجئ بما لم يكن فى حسباته ..

إن أخته الشابه المسكينة الجميلة الذابلة الفقيرة الحزينة المحتاجة إلى من

يعينها لكى تتزوج حبيبها وترحم من عجوز ثرى يريد أن يتملكها .. هذه الأخت البائسة قالت لأخيها :

لقد أخطأت يا راسكو..

- إنك ارتكبت جريمة ..
- أنت قاتل.

وبكت ... ثم رفعت عينيها الحزينتين.. واستطاعت أن تنصحه بأن يسلم نفسه للشرطة ، وأن يعترف بأنه القاتل ، وأن ينقذ رقبة رجل مظلوم برىء لم يقتل ..

«إنك يا راسكو تمحو نصف جريمتك بتقبلك العقاب» .

قال لها وهو يحاورها :

جريمة .. أية جريمة .. هل قتل حشرة ضارة يعتبر جريمة ؟

ألا يستحق قتلها غفران أربعين خطيئة ..

إنها عجوز خرقاء.. مصاصة دماء .

قالت دونيا بهدوء وإمعان :

أخى راسكو.. أنت قتلت نفسا .. أزهقت روحا .. ثم إنك ستودع رقبة رجل مظلوم حبل المشنقة ..

قال راسكو :

هل قتل الحشرة السامة يعتبر جريمة ؟ ..

إذن ، ما قولك فى عصابات القتل وجماعات التدمير.. ، ما قولك فى

إلقاء القنابل على الجماهير الصارخة فى طلب الحرية ؟ ..

ما رأيك فى عمليات القتل بالجملة .. إن نابليون بونابرت قضى على تولوز بالدمار ، وقتل نصف مليون إنسان فى موسكو .. ومع ذلك أقيمت له التماثيل فى عدد من البلدان ، وانتشرت صوره وكتبه بجميع اللغات ، وأفلام السينما والقصص والنوادر .. وأقواله المشهورة .. إن فرنسا تحتفل بذكراه كل سنة ، ويطوف الناس بضريحه ، ويقول الفرنسيون : ليته يعود ! .

قالت دونيا :

إنك قتلت نفسا ، إنك قضيت بمحض تفكيرك وإرادتك على حياة إنسان .. وهذه ليست وظيفتك وإنما هى عمل الله .. فهل أصبحت أنت الإله ؟

قال راسكو :

أى وزن أو قيمة لحياة هذه العجوز المشلولة الشريرة التى امتصت دماء الكثيرين من المساكين . إن قتلها خير من حياتها .. إن قتلها يجعلنى أتم دراستى ، وأبدى نجابتى .. وأخدم العلم والمجتمع .. إن قتلها يجعلنى قادراً على إحضار الطبيب لأمى ، وشراء ما يلزمها من دواء وكساء وغطاء ..

إن قتلها يجعلك تتزوجين الشاب الذى تحبينه ، والقادر على إسعادك وخلاصك من ذلك المسخ الشرير الذى يريد أن يقطف الزهرة . إن قتلها يجعلنى أفعل الخير الكثير لإعانة عشرات التلاميذ العاجزين عن شراء الكتب وعشرات المرضى واليتامى والمحرومين ..

.. وصمتت دونيا عن الكلام .. ولكن وجهها الشاحب ودموعها الحزينة عبرت عن خاطرها .

وفهم راسكو رأيها وأدرك صحة منطقها .. وأفاق على الحقيقة المفجعة : إنه قاتل ..

لقد ارتكب جريمة قتل ولابد من العقاب !

صحيح أن موت المرابية الشريرة أفضل من حياتها المؤذية .. ولكن الحياة والموت من صنع الله ، وليس للإنسان أن يتدخل فى شئون الله ، ولا أن يفعل ما يتعارض وحكمته العليا ..

وذهب راسكو إلى الشرطة ، فسلم نفسه واعترف بجرمه .. وليكن الله فى عون أخته وأمه وسائر أوليائه الصالحين .

* * *

سئل الكاتب الفرنسى الشهير «فيكتور هوجو» عن شعوره عندما تقدمت به السن واقتربت النهاية .. قال : لست خائفا .. وليحضر الموت على الرحب والسعة ..

ولقد آثر المصور الهولندى العبقرى «فان جوخ» الموت على المرض ، فأطلق على صدره رصاصة من مسدسه واختصر آلامه فى ثانية واحدة ..

وكره الحياة الكاتب الروسى الشهير «تولستوى» وكفر بالدنيا بسبب رعونة زوجته المؤذية التى لم تشفق على مواهبه الأدبية ، ولم تحفل بجاهه وشهرته ، وظلت تنكد عليه ، وتجعل حياته جحيما حتى فضل الموت فرارا منها على الحياة معها ..

غير أن هذه النماذج تعتبر حالات فردية ، خلقتها ظروف قاسية ، ومواقف مفزعة ، ومشاعر مضطربة .

إن الظاهرة الغريبة ـ والتى تتغلب على ظاهرات أخرى كثيرة فى الحياة ـ هى أنه مهما يلاقى الناس من متاعب وآلام فإنهم يحبون الحياة ، ولا يرغبون فى فراقها ، مهما طال بهم العمر ، أو وهنت الصحة ، أوكثرت الأوجاع والآلام ..

كل الناس يحبون الحياة .. حتى الفقراء والمرضى والمساجين .

ولقد أعطى الشاعر لافونتين أكبر مثل على تعلق الناس بالحياة مهما أصابهم من سوء الطالع أو أشد المحن ، فجاد ذهنه بصورة حطاب عجوز منهوك القوى توالت عليه الأعباء فحنت ظهره وسلبته الصحة والبهجة حتى صار تمثالا للتعاسة والشقاء .. وكان بين الحين والحين يثقل حمله وتشتد عليه علته فيتمنى الموت ..

نعم ، كان يكلم نفسه ويطلب الموت وكأنما كان يبحث عنه ويستدعيه لإنقاده ويناديه بصوت عال .. حتى إذا استجاب الموت لدعوته ولبى نداءه وصار أمامه وجها لوجه .. فزع الحطاب المسكين ، وتراجع فى خطوه ، ورجع فى كلمته .. لما عرف أنه الموت !

قال الحطاب لشبح الموت : أرجوك .. ساعدنى .. أنزل حملى ..

وساعده شبح الموت ، وأنزل الحمل عن كاهله ..

وهنا أحسّ الحطاب بالراحة ، فنظر إلى الموت خائفا وصرخ فيه :

اغرب عن وجهى .. لاأريدك .. أريد أن أعيش !

وهكذا أعلن لافونتين أن شعار بنى الإنسان هو :

أحب إلينا أن نتعذب .. ونتعذب .. ولا نموت .

وفى مثل هذا الإدراك قال أحد المحكوم عليهم بالإعدام :

لو سنحت لى فرصة النجاة من حبل المشنقة .. مقابل أن أعيش على قمة صخرة نائية تحتها هوة سحيقة أو بحر متلاطم الأمواج .. واستمر هكذا ! .. فإنى أفضل أن أعيش وحيدا معزولا محروما .. وفى أقسى الأحوال .. ولا أموت .

* * *

إذن ، هذه هى الحياة ، ولا شىء غير الحياة ، بأية صورة وفى ظل أقسى الظروف .. تلك هى الحقيقة الكبرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحياة ليست لعبا ولهوا ، كما أنها ليست ملكا خاصا يحق للإنسان أن يتصرف فيه . كأن يحتفظ بها على هواه ورهن مشيئته ، أو أن يقضى عليها بمحض إرادته متى شاء .. ولا يقل حماقة بعد هذا التفكير أن تقاس حياة الناس بمقياس الزمن .. فمهما طالت ومهما كانت كلها شقاء ، فإن الشهور أو الأيام الباقية من عمر الإنسان قد تتحول إلى فترة راحة ومرحلة هناء وسعادة وتفوق ..

.. ومن يدرى ؟ فقد تكون الخاتمة على غير ما جاءت البداية .. وقد يتفوق آخر العمر على أوله .. فتنتهى سنوات العذاب والشقاء وتجىء أيام حلوة .. مثلما يجىء الضياء بعد ليلة ظلماء ..

أنت لا تدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ..

٧

للموت دعابات .. وطرائف !

جدّ الزمان وأنت تلعب
والعمر فى لا شىء يذهب
كم قد تقول غدا أتوب
غداً غداً والموت أقرب

ابن المعتز

لفت نظرى واستقر فى ذاكرتى منذ عدة سنوات خبر نشرته الصحف تحت عنوان :

«مات البائع والمشترى» .

ومؤدى الخبر أن أحد الوجهاء اضطر تحت ضغط الحاجة إلى بيع قصره المنيف فى شارع الهرم ، فاشتراه أحد الأثرياء الجدد .

كان البائع مترددا كل التردد ، حزينا غاية الحزن وهو يودع مرتع مجده ومظهر جاهه .. بينما كان المشترى مقبلا متعجلا إتمام تلك الصفقة «الصقع» التى أهدتها إليه المقادير لكى يصبح وجيها موفور الزهو والانبساط .

وتم توقيع عقد البيع بين وخزات الألم من جانب ، وهزات الفرح من الجانب الآخر .. وبعد ساعات قليلة وقع حادث غريب ومصادفة مفاجئة .. وظهر النبأ فى صحف الصباح :

مات البائع والمشترى ..
مات الضاحك والباكى

كذلك نشرت الصحف يوم أول يوليو ١٩٧٧ خبرا مثيرا تحت عنوان :

«تحاول الانتحار من الدور الخامس

تسقط فوق عامل فى طريقه إلى عمله ..
فيموت العامل وتنجو الفتاة المنتحرة ! ؟ »

شهد أهالى العجوزة حادثا غريبا أمس عندما ألقت فتاة بنفسها من فوق إحدى العمارات العالية محاولة الانتحار ، فسقطت فوق عامل تصادف سيره أسفل العمارة ، ولقى العامل مصرعه على الفور .. بينما لم تصب الفتاة بأى سوء ، وقد وجهت لها النيابة تهمة قتل العامل بطريق الخطأ !

* * *

روى الكاتب الخصيب توفيق الحكيم أن أحد كبار موظفى الدولة كان يتطلع إلى درجة وكيل وزارة ، وكان يفسد مطمعه ويؤرق مضجعه أحد زملائه الذى كان أحق منه بالدرجة بحكم أقدميته وكفاءته .. غير أن الرجل الطامع كان واسع الحيلة كثير الدهاء وقد تفتق ذهنه عن « مقلب » محكم يوقع بين الوزير ومنافسه المستحق للدرجة ، وبذلك يغضب الوزير على ذلك الرجل فيتخطاه ويقصيه ويصبح ذلك الداهية المتآمر هو المرشح الوحيد الفائز بالوكالة المرتجاة .

وتم « المقلب » بإحكام و « شربه » الوزير فاستبعد الوزير الرجل الكفء المستحق وقام بترشيح صانع المقلب وفنان النفاق .. وصدر القرار بترقيته ، وبلغه الخبر وهو يهم بمغادرة مكتبه إلى بيته كعادته كل يوم .. ولكنه فى لحظة زهوه وعجبه أراد أن يغير طريقه لكى يمر بشارع شريف حتى يراه معارفه من رواد « بار الانجلو» فيزف إليهم البشرى ، ويتقبل منهم التهانى .

ومضى سعادة الوكيل يذرع الطريق مترفقا من تيه وخيلاء ، ويحرك عصاه كأنما يدق الأرض ثم يرفعها كأنما يطاول السماء .. وعلى مقربة من « بار

الانجلو» لفت نظره طفل يتبول على الحائط فأخذته العزة ولم يعجبه المنظر الذى لا يتفق مع جلال المناسبة ، فرفع عصاه فى وجـه الطفل ونهره .. وإذا قدمه تنزلق فيما أحدثه الطفل من بلل ، وسقط الهيكل الشامخ على أم رأسه .. ساكنا بلا حسّ ولا حركة .. ومات على قطرات من البول ! ؟

ومن القصص المشهورة التى كان الموت فيها يلهو ويتسلى قصة السيدة وكلبها :

كانت إحدى السيدات المتفرنجات كلفة بحب كلبها .. لا يفارقها فى يقظة أو نوم ، فكان يرى فى بيتها ومعها فى كل تحركاتها وساعات نزهتها ، حتى كان يوم اصطحبته معها إلى شاطئ البحر حتى لا يفوته الاستمتاع بحمام الشمس ورياضة السباحة ..

نزل الكلب وراء سيدته إلى عرض البحر دون أن تنتبه إليه ، وكانت السيدة سباحة ماهرة ، فراح الكلب يلاحقها حتى حصره الموج ودهمه الخطر.

ولما عادت السيدة إلى الشاطئ ولم تجد كلبها ، فقد راحت تتلفت حولها لهفة عليه وخشيت أن يكون قد نزل إلى الماء خلفها .. ثم لمحته بعيدا كريشة فى مهب الأمواج .. وبغير تكفير فى حالتها المجهدة بعد سباحة شاقة فقد ألقت بنفسها فى البحر وراحت تبذل جهدا عنيفا فى مصارعة الأمواج .. فكانت تراه لحظة ويختفى عن نظرها لحظات .. وما تكاد تلتقطه حتى يضربه الموج فيغرق واستمرت على ذلك ساعة حتى أضناها الجهد وخارت قواها وابتلعها اليم ..

وقد لفت نظر بعض النظارة على الشاطئ جسم صغير ضعيف تتقاذفه الأمواج ، فألقى أحدهم بنفسه واستطاع أن ينقذه ويعود به حيا .

لقد غرقت السيدة السباحة القديرة .. ونجا الكلب !

* * *

وعلى شاشة السينما شاهدت الجماهير فيلما عن قصة «الموت فى اجازة» .. إذ توقف الموت فجأة عن نشاطه المعهود ؟ .

كان الثرى العجوز يعيش فى قصره المنيف وضياعه الواسعة لا يعنيه فى الحياة شيء ولا يؤنسه فى وحدته غير حفيده الصغير الذى مات والداه فى حادث سيارة .

وفى يوم عبوس كان الطفل يلهو فوق شجرة تفاح ضخمة بمدخل القصر فسقط بين فروعها وأصيب بجراح شديدة ما لبثت أن تلوثت وأخفق الأطباء فى علاجها ، وارتفعت حرارة الطفل الجريح وساءت حالته وتضاعفت آلامه ولم يعد يحول بينه وبين الموت حائل .

وأصبح الشيخ باكيا وبات حسيرا وانقطع إلى الصلاة والدعاء أن يمنع الله الموت من دخول القصر ، واتجه ببصره إلى شجرة التفاح الضخمة وتمنى على الله أن يضع فيها سرّة فتقتنص الموت عند دخوله القصر ، وتحبسه بين أغصانها ، أى تحدد إقامته ولا تفجعه فى حفيده الوحيد الحبيب ، مشرق أمله ومعقد رجائه .

وكانت دعوة مستجابة !

دخل الموت من باب القصر فتلقته شجرة التفاح ، وغاب بين غصونها ولم يستطع حراكا ، وفوجئت المدينة بظاهرة عجيبة.. لقد توقف الموت.. لم يعد أحد يموت .. الفتاة التى سقطت من الدور العاشر لم تمت .. الرجل الذى

أشعل النار فى نفسه أصابته حروق ثم أنطفأت النار .. ولم يمت .. العجوز التى كان القسيس يودعها ويبارك نهايتها صحت .. القتيل الذى أغمد القاتل خنجره فى ظهره بقى سليما معافى .. لم يعد أحد يموت فى المدينة كلها إلا فى جهة واحدة .. فى شجرة التفاح بقصر الثرى العجوز كانت الطيور التى تحط على الشجرة تسقط ميتة . كذلك الفئران التى تتخذ جحورها فى هذه الشجرة ؟

ولكن .. ما الذى حدث فى داخل القصر؟
وماذا جرى للفتى الجريح ؟

الفتى الجريح لم يمت ، والأطباء حيارى ، والجد سعيد لأن دعاءه استجابه الله .. ولكن : الطفل يتألم ويصرخ ويتوجع .. لا يعرف الراحة ولا يذوق طعم النوم ..

وعزّ على الجد ما يجرى للحفيد ، وانتبه إلى الحقيقة وهى أن الموت راحة للطفل المسكين المعذب .. فمضى إلى محراب صلاته ودعا الله أن يطلق سراح الموت من شجرة التفاح .. واستجاب الله للدعاء ، وانتهت أجازة الموت .. الذى سرعان ما أطبق على الطفل فأراحه من العذاب .. وأسلمه للراحة العظمى .

* *

وقصة أخرى تمثل أعجب ما يحدث للإنسان حين ينجو من براثن الخطر ثم يلقى الموت فى هدأة الراحة والطمأنينة .. فهذا الشاب الطيار الذى عاش زهرة عمره يحلق فى آفاق المعارك والموت يتهدده فى معركة بعد معركة فيفلت من الموت .. وتنطلق نحوه الرشاشات فلا تصيبه ، ثم تصاب طائرته فيضطر

للقفز بالمظلة وينجو.. حتى إذا انتهت الحرب وزال الخطر عاش الطيار حياة آمنة فأحب وخطب وتزوج .. وفى ليلة فرحه كانت الزغاريد تعلو مع نغمات الموسيقى.. وطلقات الرصاص تدوى تعبيراً عن الفرح وإعلان السعادة.. وفجأة استقرت رصاصة فى صدر العريس ليختم حياته ختاما غير متوقع لمثله .. فهو لم يمت برصاص العدو فى معمعان الحرب ولم تسقط به الطائرة.. وإنما غدرت به رصاصة طائشة أطلقت تعبيرا عن الفرح ..

وهكذا كان نتيجة اللعب بالنار..

وهكذا قد يختفى الموت فى حومة القتال ، ويظهر فى ساحة الأمن والأمان ! .

* * *

لم تفت أسرار الموت ودعاباته عميد المسرح المصرى يوسف وهبى الذى عقد له الفصول الطريفة فى عدد من مسرحياته، ففى «خفايا القاهرة» خرج الميت من قبره لأنه كان فى إغماءة وظنوه فارق الحياة ودفنوه قبل انقضاء أجله .. وإذا هو يصحو وينفض تراب القبر وينهض إلى الطريق بوسائل تخفيه عن الأنظار وقد لف جسده بملاءة بيضاء.. وكان قد اشتد حنينه إلى بيته المنيف وزوجته المحبوبة وأبنائه البررة وأصدقائه الأوفياء.

فماذا رأى بعد أن واروه التراب ؟

وما الذى كشفه له الموت من خفايا القاهرة !

رأى زوجته فى مخدعه المقدس بين أحضان أوفى أصدقائه ..

ورأى ابنه البار يبدد أمواله ـ التى جمعها بعرق الجبين ـ على موائد القمار .

ورأى ابنته العذراء تدلف ليلا إلى غرفة سائق سيارته ورأى .. ورأى .. ورأى ..

وقرر الميت الحى أن يعود إلى قبره ..

ورب موت خير من حياة ! ! ..

وفى مسرحية أخرى كان الطبيب المشهور يقضى ليلة ليلاء يبكى وينتحب ويشنج ويكاد يفقد عقله لأن وحيده سيلقى حتفه إعداما عند مطلع الفجر ، وذلك بعد أن صدر حكم القضاء بإدانته فى وقعة قتل خطأ لصاحب له كان يريه كيف يعمل مسدسه الجديد .

وعند منتصف الليل طرق بابه طارق مُلِحْ ، فتحامل الطبيب على نفسه المنهارة واستطاع بصعوبة أن يصل إلى الباب ويفتحه ، فإذا الطارق رجل ضخـم الجثة كث الشارب ولكن بادى قلق واضطراب ، وقد جاء يستغيث بالطبيب لكى ينقذ زوجته من ولادة متعسرة لم تقو عليها «الداية» وطال بين الرجلين نقاش وكل لا يلتمس لصاحبه عذرا .. وبعد إلحاح ورجاء واستعطاف تغلبت مهنة الطبيب فأخذ حقيبته وخرج مع الرجل فى جنح الليل ليؤدى واجبه الإنسانى ..

وقد حدثت المعجزة ونجت الأم وجاء الطفل إلى الحياة سليما معافى ، وانطلق الأب يقفز فرحا ويحمل طفله سعيدا .. ثم سأل الطبيب عن الساعة .. وأسرع فى الخروج لأن لديه موعدا هاما .. إذ أنه بعد نصف ساعة سوف ينفذ حكم الإعدام فى شاب قتل صاحبه ..

هذا الرجل هو : عشماوى.. الذى سيلف حبل المشنقة حول عنق الشاب

ابن الطبيب : الذى أنقذ حياة زوجته .. وجاء له بابنه الوليد سليما !

وصاح الطبيب :

سبحانك ربى .. أجىء له بابنه إلى الحياة .. ويجىء هو لابنى بالموت !! ..

* * *

٨
مسك الختام

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

شوقي

ما أطيبك حيا

ما أطيبك ميتا

عندما مرض محمد ـ صلوات الله عليه ـ مرض الموت كان الهدوء يشيع على محياه الطاهر ، والصفاء يشمله رغم أن الألم العظيم كان قد حلّ به وأضناه ، وأرهقه وأرهق من حوله من أهل وصحب ، وقد خاف المسلمون أن يرتد الخلق عن دين الله إذا حمّ القضاء فى صاحب الرسالة وحامل الأمانة .

وكان الله سبحانه وتعالى قد كشف لنبيّه الحجاب وأعلمه بالموت الذى هو ملاقيه وأن الموت نهاية كل حىّ ولو كان رسول الله وخاتم أنبيائه :

(إنك ميت وإنه ميتون)

« ٣٠ ك الزمر ٣٩ »

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون)

« ٣٤ ك الأنبياء »

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

« ١٤٤ م آل عمران ٣ »

ولقد كشف الموت عن سمة جليلة من سمات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان قدوة فى مماته مثلما كان قدوة فى حياته .

والموت يكشف معدن الإنسان ويبرز مدى إيمانه وصلاحه وانصياعه لحكمة الخالق الأعظم ..

وما النبأ العظيم إلا التقاء جلال الموت بجلال الميت .. ولكن الموت لا ينبغى أن يخيف عباد الله المتقين ..

عندما اشتدت الحمى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إثر حجة الوداع كان فكره مشغولا بتوطيد أمن المسلمين على حدود الشام خشية عدوان الروم. ولذلك كان قد أمر بتجهيز جيش عظيم عقد إمارته لقائد شاب هو أسامة بن زيد بن حارثة وهو فى العشرين من سنى حياته ، وجعل أبا بكر وعمر بن الخطاب فى جيش أسامة ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حومة مرضه يذكر بعث أسامة ، ويتحامل على نفسه ، ويتغلب على أوجاعه ، ويذهب إلى المسجد ليصلى بالناس ويخطب فيهم :

« أيها الناس .. انفذوا بعث أسامة .. فلعمرى إذا قلتم فى إمارته فقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة ، وقد كان أبوه خليقا بها وإنهما لمن أحب الناس إلى الله ورسوله فاستوصوا بأسامة خيرا » .

لقد أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد اقترب أجله منذ حجة الوداع حين نزلت الآية الكريمة :

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون .. اليوم

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)

«٣ م المائدة ٥»

وأدرك أبو بكر ما تحمله تلك الآية الكريمة من نبأ عظيم فبكى تأثرا وارتياعا فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – :

ما يبكيك يا أبا بكر؟

قال الصدّيق : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص.

قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : صدقت.

وكانت الآية الكريمة إيذانا بوفاة الرسول الكريم ، وقد خطب – صلوات الله عليه – فأفصح وأوضح :

«أيها الناس اسمعوا منى لأبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيها الناس .. إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا.
ألا هل بلّغت؟»

قال الناس : نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت.
قال – صلى الله عليه وسلم – : اللهم فاشهد
وتلا قوله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

« ٣ م المائدة ٥ »

وفى موضع آخر قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

أيها الناس .. بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟

ألا إنى لاحق بربى وأنتم لاحقون به .. فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول :

(والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

« ١ ـ ٣ ك العصر ١٠٣ »

ثم أفصح الرسول عن اقتراب أجله واختيار خليفته قال :

« إن عبدا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ماعنده وما عند الله فاختار ما عند الله » .

وهنا فطن أبو بكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد بذلك القول نفسه وأنه اختار جوار الله .

وأمر النبى أن تقفل الأبواب المؤدية إلى المسجد ماعدا باب أبى بكر .. وفهم الناس من تلك الإشارة أنه اختار أبا بكر خليفة له .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« إنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة منه ، وإنى لو كنت متخذا خليلا

لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة الإيمان والإخاء حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وكان بحوزة النبي – صلى الله عليه وسلم – سبعة دنانير ، فلما شعر بدنو أجله أمر بإنفاقها صدقة ، وقال في ذلك :

« ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه الدنانير » .

« نحن الأنبياء لا نورث » .

واشتد الألم بالنبي – صلى الله عليه وسلم – يوم وفاته ، فكانت ابنته فاطمة تبكى وهو يهدئ من روعها ويهمس لها :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

وقال لزوجه « عائشة » يخفف كربها ويسرى عن نفسها ما تعانيه من حزن وأسى : إنه سيقبض وأنها أول أهله يلحقه .. فجعلها تضحك .

وفى ساعاته الأخيرة تحامل على نفسه وقوى على ضعفه وخرج إلى المسجد عاصبا رأسه ومستندا على ذراعى على بن أبى طالب والفضل بن العباس ، وصلّى قاعدا ، ثم استدار إلى الناس وقال :

« أيها الناس ..

من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتص منى ، ومن كان له عندى درهم فهذا مالى فليأخذ حقه .

أيها الناس .

سعرت الناس وأقبلت الفتنة كقطيع الليل المظلم » .

وقد أمضى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساعاته الأخيرة فى بيته ورأسه فى حجر عائشة وكان يغمغم :

«اللهم أعنى على سكرات الموت

لا إله إلا الله . إن للموت سكرات» .

ثم شخص بصره وتمتم :

«بل الرفيق الأعلى من الجنة»

وأسلم الروح العظيم

* * *

ودخل أبو بكر فكشف عن وجهه الكريم ، وقبله ، وقال :

ما أطيبك حيًا وما أطيبك ميتا ..

وخرج أبو بكر إلى الناس الذين كانوا قد تجمعوا وظلوا طويلا بين الأمل والرجاء والخوف والإشفاق ، فقال :

«يا أيها الناس

من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت»

ثم تلا قوله تعالى :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقيبه فلن يضرّ الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين)

«١٤٤ م آل عمران ٣»

.. وهكذا كانت نهاية أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وفيها يتجلى الإيمان بالله ، والرضا بحكمه ، والحفاظ على دينه ، والصبر عند الشدة ، والبّر بالفقراء ، والإصرار على العمل الصالح ، والكلمة الطيبة ، والدعابة اللطيفة ، كان وهو يغادر الدنيا يودعها بابتسامة الرضا ، وكلمات التقوى ، وحمد الله على ما أعطى وما أخذ ..

وما كانت أعظم كلمات أبي بكر فى وداع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

طبت حيّا وطبت ميتا

* * *

ومن هذه السدة العليا لمشهد نبى الإسلام ـ صلوات الله عليه ـ حين حضرته الوفاة ـ خاتمة طيبة ونهاية مرضية ـ نقلّب صفحات الزمن لنتعرف إلى عظماء الرجال كيف انتهت حياتهم ، وما كانوا عليه فى ساعاتهم الأخيرة ، حتى نستلهم العبرة ، ونستكمل المسيرة .

عندما لاح شبح الموت للإمام القدوة والمصلح العظيم الشيخ محمد عبده فقد استقبل نهايته برضاء العارف وصبر المؤمن ، وكان ملاذه اسم الجلالة كلما وخزه الألم ردّه بقوله : الله أكبر ..

كان يقولها بصوت عال ، فلما فقد القدرة على النطق كان يحرك شفتيه : الله .. الله ..

لقد أدرك الإمام الرشيد اقتراب منيته ، وصارحه بذلك أحباؤه ، إذ تسلل المرض الخبيث إلى أحشائه ، وكان بعض صحبه يجامله ويتلطف به

فيقول إنه مرض الجهاد العنيف والكفاح المتواصل فى سبيل الله والوطن ، فكان الإمام يقول «بل هو مرض الكائدين ودسّ الجهلاء الحاسدين .. قد يعثر الأسد بالشظية فتدمى قدمه وتثير ألمه وتخلف عنده من العلل مايبدد أثره .. بعد زوال الألم » .

وإذا كان المرض قد تسرب داخل جسد المريض الجليل ، فإنه لم ينل من نفسه الكبيرة ، ولم تستطع الأوجاع الشديدة أن تتغلب على صفاء نفسه ، كما لم يتمكن الألم من هزكيانه ، ولم تشغله فى أيامه الأخيرة شواغل خاصة وإنما كان معنيا بشئون الأزهر ، وصلاح أمور المسلمين ، وكان لا يفتأ يقدم النصحية لزواره .

حدث أن أحد صحبه خاطبه كأنما يطمئنه ويطيب خاطره :

«لقد أعطيت نفسا أبية وعزيمة قوية ، وما عهدنا فيك ضعفا»

فقال الإمام :

« دعنى من نفسى فما أبالى بها ، ومن عزيمتى فما كنت مرتخصا لها ، وما أنا بآسف على الحياة .. » .

ثم أخذ يردد شعرا من نظمه :

ولست أبالى أن يقال محمد   أبلّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دينٌ أردتُ صلاحه   أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وعندما أشار عليه الأطباء بالراحة التامة ونصحوه « بتغيير الهواء » والسفر إلى أوربا ، قال مداعبا جلساءه :

«إنهم ينصحون بالسفر إلى أوربا ..

عجبا ! ! ألم يكن خيرا لى أن أسافر إلى الريف لأشتغل مع الفلاحين ..

مثلما كان الخديوى يقول لى متندرا » !

وفى تاريخ الإمام محمد عبده سطور من أخريات أيامه تقول :

طابت الإقامة لمفتى البلاد ، وزعيم الإصلاح الدينى والاجتماعى بهذه المدينة ـ الإسكندرية ـ وانتعش الأمل بشفائه ، وابتهج الناس بتحسن صحته ، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين أرجائها من أنباء سارة ، وابتهلت إلى الله أن يتم لإمامها أحسن العافية .. لكن هذا الأمل الذى انتعش فى بسمة الأيام ، وهذا الابتهاج الذى بدا فى ساعات معدودات ، وهذا التفاؤل الذى لمع فى النفوس . لم يلبث ذلك كله طويلا .. فقد تبدد فى يوم كدر وهو الخامس من يوليو ١٩٠٥ حين انتشر نبأ الخطر على صحته ، وكان المشرفون على تمريضه يحيطون به ، وقد اطمأنوا إلى أنه يقضى الليل منذ عدة أيام فى راحة وسلام ، ولكنه فى تلك الليلة استيقظ متعبا متوجعا فأسرعوا إليه فوجدوه حائرا يتلوى يمينا وشمالا من شدة الألم ، واستمر فى هذا الحال يعانى من الداء العضال ويكافح الأوصاب الجسام ، وكان يستعين عليها بذكر الله ..

كان منذ ابتداء مرضه يردد متواصلا : الله أكبر.

الله أكبر.. كانت سلوته ، ومفتاح صبره ، وبلسم ألمه ..

الله أكبر.. كانت عماد عزيمته وشجاعته وبصيرته .. كانت سلوته فى يقظته ومنامه ، لم ينفك عن ترديدها ، ولم يبرح يعيدها كلما برح به الداء واشتد عليه البلاء ..

وفى صبيحة الحادى عشر من شهر يوليو ١٩٠٥ دخلت عليه السيدة قرينته

فوجدته ساكنا هادئا فنادته ففتح عينيه قليل ثم أغمضهما ، وأخذ يحرك شفتيه بالتكبير ، وأخذت السيدة الفاضلة تدعو له وهو يبتسم لها ويستمر فى تحريك شفتيه : الله . الله ..

كان اسم الله هو كل ما فى خاطره حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات حتى يستوفى جزاءه من نعيم الجنات :

* * *

أما الزعيم الوطنى الشاب : مصطفى كامل باشا ، فقد قضى ضحوة العمر ، وكان صحبه ومريدوه يشفقون عليه إذ كانت صحته واهية ، وبنيته أضعف من أن تتحمل مشاق وتبعات مسئولياته العظمى وجهاده المضنى ، وهو يسعى إلى تحرير أمته من ربقة الاستعمار ونير الاحتلال .

كتب مصطفى كامل لأحد أصدقائه رسالة حزينة تكشف عن اشتداد مرضه ، وشعوره باقتراب منيته :

> «إننى كنت فى مرض شديد يئست معه من حياتى ، وهو مسبّب من كثرة المتاعب التى صادفتها فى هذا العام ، والتى أؤمل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص . ولا أمل لى فى شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها . ورجوع السيادة لأبنائها المخلصين .. » .

وفى رسالة أخرى تتضح قوة روحه ويتبدى ضعف صحته :

«إن العمل قد أضنانى إلى حد أشعر معه بشدة الحاجة إلى ترك الوسط الذى أعيش فيه ، وكأن الطبيعة خالفت سنتها إذ جعلت روحى أكبر من قوة جسمى .. تماثلا مع القول المشهور :

وإذا كانت النفوس كبارا　　تعبت فى مرادها الأجسام

كان الذى يشغل الزعيم القوى الروح ، الضعيف البنية ، هو : مصر .. وكان لايفتأ ينشد فى يقظته وإغماءاته نداءه الحبيب :

بلادى .. بلادى

وفى كتاب «الساعات الأخيرة» لمؤلفه المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى تسجيل دقيق لما دار فى أخريات أيام الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل :

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر فى أوربا سنة ١٩٠٧ قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والإعجاب ، ورأى هو أن يدعم حركته ـ قبل أن تحل منيته ـ بتأليف الحزب الوطنى ، وفى أول اجتماع له مع أصدقائه ومعارفه للبحث فى تأليف الحزب شعر بالتعب ، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه ..

قال لهم :

يخيّل إلى أننى عما قريب سوف أفارقكم ..

قال أحدهم :

إلى أين .. إنك أجهدت نفسك ، وسموت فوق الطاقة فى جهادك ، وأنهكت جسمك فى السفر فى سبيل مصر مرارا .. فاسترح فى بلدك .

قال مصطفى كامل :

سوف يستريح جسمى الراحة الكبرى .. وكنت أود لو استراحت روحى قبل الفراق «يقصد نجاح مسعى الاستقلال» .

قال صاحبه :

ماذا تقصد يا باشا

قال مصطفى كامل :

أقصد أنى لن أعيش طويلا ، وسأموت قريبا .. فلا تضيعوا الوقت اسرعوا بالعمل .

قال صاحبه :

سلمت يا مصطفى .. لا تتشاءم ..

قال :

ليس تشاؤما ولا وهما .. إنى أشعر من أعماق بنفسى بقرب نهايتى.. وهنا فطن إخوانه إلى ما يعانيه ، وحل بهم الأسى والكدر فسكتت ألسنتهم ، ونطقت وجوههم بما تولاهم من هم وذهول .

والتفت مصطفى كامل إلى شقيقه على فهمى كامل ، وقال :

تشجع يا على .. وإذا متّ فليحمل اللواء هذا الرجل .. وأشار إلى خليفته : محمد فريد .

وكانت آخر خطبة ألقاها مصطفى كامل يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر ، وقد استمر فى إلقاء خطابه أربع ساعات تكرر خلالها حديثه عن الموت وقد جاء فيها :

«إن مصر بالغة آمالها ومحققة بإرادتها وهمتها كل مطالبها ..

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم ، فى ماضى الأيام وحاضرها . إن أعلى مطلب نرمى إليه هو مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ولا الشتائم تؤثر فينا ولا الخيانات تزعجنا .. ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم .. لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا واحدا لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا :

كونوا أشد حظا منا

وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بحقوق الوطن والحرية والاستقلال .. » .

وهكذا كان كلام زعيم وطنى شجاع يدرك تماما أنه أصبح فى قبضة الموت دون أن يشغله موته بقدر ما تشغله حياة أمته .

وكان نداؤه يدوى فى شتى أنحاء البلاد :

بلادى . . بلادى لك حبّى وفؤادى
لك حياتى ووجودى لك دمى ونفسى
لك عقلى ولسانى لك لبّى وجنانى

أنت أنت الحياة
ولا حياة إلا بك يا مصر

وفى إبان مرضه زاره صاحب العرش ، فإذا مصطفى كامل يوصى

الخديوى عباس حلمى الثانى .. يوصيه بالبلد خيرا :

«لى رجاء يا أفندينا
وأنا أشعر الآن بقرب الأجل
أن تعطف على الحزب الوطنى .. إنه أمل مصر .. »

وعندما حضرته الوفاة التفت إلى صديقه أمير الشعراء أحمد شوقى بك .
وهمس إليه بنبرة خفيفة مرحة :

سوف ترثينى ياشوقى .. أليس كذلك ؟

فأجابته دموع شوقى ، التى نظمها فيما بعد فى مرثيته الرائعة :

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما فى مأتم والدانى
دقّات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان
ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الأجفان
ورأيت كيف يموت آساد الشرى ... وعرفت كيف مصارع الشجعان

.. وقد ختمها بقوله :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها ... قبر أبرّ على حطامك حانى
أقسمت أنك فى التراب طهارة ... مَلَك يَهاب سُؤالهِ الملكان

* * *

إن الرجال العظماء يستقبلون الموت بإدراك سليم لحكمة الله واستسلام مريح رضاءً بقضائه .

وإذا انتقل الرجل العظيم إلى جوار ربه ، فإن ذكراه تبقى حيّة فى نفوس أهله وعارفى فضله وبنى وطنه ..

يذوى الجسد وتبقى الروح ، يغيب الإنسان ويبقى الاسم والفضل . يمضى الزعيم ويستمر العَلَم يتلقاه قائد بعد قائد وجيل بعد جيل ..

فى السفر الرائع الذى دبجه قلم الكاتب العظيم الراحل عباد محمود العقاد «سعد زغلول .. سيرة وتحية» صفحات باهرة وجليلة عن الساعات الأخيرة فى حياة زعيم مصر الخالد ، تحمل لمحات من سمات الإنسان الكبير وخصائص الزعيم العظيم :

«الوفاة ..

كان فصل الانتقال من الشتاء إلى الربيع متعبا لسعد ، فلزم الراحة نحو ثلاثة أسابيع من شهر إبريل سنة ١٩٢٧ ونصح له الأطباء بتبديل الهواء فى الصعيد ، فأمضى فى النيل ثلاثة أيام عاد بعدها إلى القاهرة ليستأنف عمله فى «بيت الأمة» وفى مجلس النواب ، وكان يجاهد نفسه ليثابر على حضور الجلسات ..

وازداد شعوره بجهد العمل يوما بعد يوم قبيل انتهاء الدورة البرلمانية ، فكان يحضر حينا ويغيب حينا ويعانى مشقة بالغة فى متابعة الأعمال البرلمانية وغير البرلمانية ، وكثير منها يجرى وراء ستار ، وهو الذى يجهده ولا ينشط إلى الخوض فى دخائله وحوانيه .

وقبل اليوم الأخير للدورة البرلمانية استجم فى المنزل ليستطيع أن يشهد الجلسة الأخيرة ويلقى فيها كلمة الختام التى تعودها منه

النواب ، غير أنه لم يقو على التحضير كدأبه فى المناسبات الرسمية ، واجتزأ بكلمة قال فى مطلعها :

« حاولت عند اقتراب انتهاء هذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت فى الدور السابق ولكنى لم أتمكن من ذلك لضعف فى صحتى » .

ثم قال :

«لقد كنت أود أن أتحدث إليكم كثيراً ولكنى أشعر أننى تعبت وأتعبتكم ولا أريد أن أجعل أحدا يملّ منى . ولكنى قبل أن أختم كلامى أرجو منكم جميعا حين تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم .. لاتنسوا أنكم نواب دائما ليحدوكم هذا العلم إلى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم ورغباتهم لكى تبدوها للحكومة مباشرة أو بطريق هذا المجلس فى الدورة القادمة إن شاء الله» .

هكذا كان حديث الرئيس الجليل ، يوصى الرجال ويقدم النصح ويهتم بالمصلحة العليا للبلاد ، وبمطالب المواطنين .. وتلك هى المهام الرئيسية لنواب الشعب .

وفى ساعاته الأخيرة استيقظ سعد بعد منتصف الليل على آلام شديدة فى المعدة ثم ذرعه القيء واشتد به التعب ، وارتفعت حرارته حتى بلغت فى الصباح أربعين درجة وخطين .

وجاء الأطباء فأوجسوا أن يكون ذلك علامة على سريان الجراثيم وسرعة فعلها فى البنية ، وداخلهم الرجاء أن يكون ذلك طارئا عارضا فى الأمعاء فعالجوه علاجا يقاوم السموم ويخفف هذا الطارئ المفروض .. والحرارة لم

تهبط عن الحادية والأربعين ، وارتفعت فى الصباح ثلاث خطوط .

وسألته السيدة صفية ـ أم المصريين ـ كيف أنت يا سعد ؟

فنظر من حوله فى هدوء واستسلام .. وكان آخر ما فاه به سعد :

« أنا انتهيت »

* * *

.. والرؤساء المشاهير أيضا .

كان موت الرئيس جمال عبدالناصر مفاجأة للشعب المصرى ، وربما لشعوب العالم ، إذ كان مرضه محجوبا عن الجميع ولم يعلم المصريون أن رئيسهم مصاب بمرض السكر منذ سنة ١٩٥٨ وهو فى الأربعين من سنوات عمره وفى الرابعة من سنوات حكمه .. كما أنه كان يعانى حالة موجعة من تقلص شرايين ساقيه .. ولما كان يدخن بشراهة فقد أجمع الأطباء الذى يعالجونه على ضرورة إقلاعه عن التدخين فاستجاب على الفور واطفأ آخر سجائره قبل وفاته بنحو عشر سنوات ، وكان يقول : إن السيجارة هى الترف الوحيد الذى كنت أستمتع به !

ورأى عبدالناصر أن يجرب علاج الأطباء السوفييت ، وقد أشاروا بعلاجه بالمياه المعدنية الساخنة فى مصحة سخالطبو بالاتحاد السوفييتى ، ثم نصحوه بالإخلاد للراحة التامة فلم ينتصح .. وكان قد أصيب بأول نوبة قلبية فى شهر سبتمبر ١٩٦٩ أى قبل وفاته بسنة واحدة ، وتكتم المحيطون به خبر إصابته وأشاعوا أنه « يعانى حالة انفلونزا وسيتغيب عن مكتبه لمدة ستة أسابيع » ! وأقاموا مصعدا كهربائيا فى بيته حتى لا يصعد على رجليه دوراً واحدا .

وقد كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ مستشاره الصحفي ووزير إعلامه في سنته الأخيرة وأقرب المحيطين به والعارفين بحالته ـ إنه «على أثر هزيمة ١٩٦٧ حلّت المذلة برأسه وظل يشعر بألم الهزيمة وبمسئوليته وبعبئه المستمر ، وأصبح مغلولا وجريحا بجراح لا تبرأ ، وبقى وحيدا كل الوحدة حتى انتقل إلى رحاب الله» .

وكان عبد الناصر قد أصيب بنوبة قلبية ثانية على أثر عقد مؤتمر القمة العربية في القاهرة ـ ٢٢ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ ـ وكان آخر عمل قام به هو توديعه لأمير الكويت في مطار القاهرة يوم ٢٨ سبتمبر ، فلما عاد إلى بيته كان ذابلا هالكا فلزم فراشه بلا حراك والأطباء حوله يبذلون أقصى ما لديهم من محاولات بالصدمات الكهربائية وغيرها . ويقال إنه في الساعة الخامسة بعد الظهر مد يده وأدار الراديو فلم يستمع إلى الخبر الذى كان قد أمر بإذاعته في نشرة أخبار الخامسة .. فلم يذع ، وبعد ذلك أسلم الروح !

لقد عاش جمال عبد الناصر اثنين وخمسين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما بين مولده يوم ١٥ يناير ١٩١٨ ووفاته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

ويروى أن رئيس وزراء الصين شواين لاى قال لوفد من المصريين كانوا في زيارته :

«لقد مات عبد الناصر من الحزن والقهر . مات كسير القلب .. أما الذنب في ذلك فهو الاتحاد السوفييتى .. لقد خدعه السوفييت ودفعوه إلى مأزق ثم تخلوا عنه وتركوا قلبه ينكسر ويتحطم» ! ؟

.. ولكننا نقول : أستغفر الله . لكل أجل كتاب .

أما أنور السادات فقد كانت مفاجأة موته أكبر.

لقد اغتيل فى لحظة غير متوقعة ، وفى مناسَبة غير مناسِبة !

كان بين «أولاده» كما كان يقول عن ضباط وجنود القوات المسلحة ..

وفى احتفالات الذكرى الثامنة لـ «نصر أكتوبر» الذى كان يتيه به .. وقد اتخذ مكانه يحيط به ألف مدعو من رجال الحكم والدبلوماسيين وقادة القوات المسلحة والشرطة ..

كانت وحدات الجيش تمر أمامه وتؤدى التحية ، وحدة بعد أخرى . والطائرات تشق عنان السماء ثم تنحنى حتى تقترب من منصته فيضع المشاهدون أصابعهم فى آذانهم ويتضاحكون .. وآلاف البالونات تصعد فى الفضاء حاملة صورته بزى القائد الأعلى وأوسمته ووشاحاته كقائد عام للقوات المسلحة وللمجلس الأعلى للشرطة والمجلس الأعلى للقضاء .. وفجأة : وقفت أمام المنصة عربة عسكرية وهبط منها الملازم أول خالد الاسلامبولى ورفاقه الثلاثة المتآمرين معه فأفرغوا رشاشاتهم فى أنور السادات وأردوه قتيلا .

وقد اقتصر تشييع جنازة السادات على رجال الدولة الرسميين وشارك فيها ثلاثة من رؤساء أمريكا السابقين : نيكسون وفورد وكارتر ، وأيضا مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل .

ونعاه رئيس الولايات المتحدة رونالد ريجان بقوله :

«إن أنور السادات كان موضع إعجاب وحب الشعب الأمريكى وإنا لموته لمحزونون» .

ونشرت مجلة نيوزويك الأمريكية خبر مقتل السادات على غلافها وفى

خمس وعشرين صفحة محلاة بالصور والرسم . وقد جاء فى بيانها :

« قبل إحدى عشرة سنة ـ غداة موت عبد الناصر ـ كان ملايين المصريين يملأون الشوارع وراء جثمانه .. أما يوم تشييع جنازة السادات فقد كانت شوارع القاهرة خالية تماما » !

وقد دفن عبد الناصر فى المسجد الذى كان معنيا بإنشائه فى «كوبرى القبة » ، فى ذات الموقع الذى كان يرقب منه حركة الجيش ليلة ثورة ٢٣ يوليو ، أما السادات فقد دفن أمام المنصة التى قضى فيها نحبه .. وعلى بعد خطوات من نصب الجندى المجهول .

وصدق الشاعر العربى القديم القائل :

مشيناها خطاً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطاً مشاها
ومن كانت منيَّته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

* * *

عش راضيا
تمت مستريحا

إذا كنت مؤمنا بالله ومؤديا ما فرضه الله

وإذا أخلصت لوطنك وعملك وشركائك

وإذا حافظت على زوجك وأولادك وزودتهم خيرا وصلاحا

وإذا سددت ما عليك من دين وأديت الأمانت لأهلها

وإذا خلصت قلبك من الحقد والحسد والأنانية

وإذا عفوت عن خصومك وسامحت أصدقاءك

وإذا كنت عارفا بأن الموت حق وأنه نهاية كل حى

وإذا جاءك الموت فلم تفزع وإنما تقبلته راضيا

وقلت الحمد لله .. اللهم خفف عنى وتقبلنى

إذن .. فقد طبت حيا وميتا

وانتقلت إلى جوار ربك راضيا مرضيا

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لها خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العالمين .. وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

صدق الله العظيم

(٧٣ ــ ٧٥ م الزمر ٣٩)

(تم بعون الله)

الفهرس

الكتـــاب .. والمـؤلـف

* هذا الكتاب هو رقم ٦١ من مؤلفات السيد فرج وكان أولها كتاب «الرياضة فى بلادنا» الذى أصدرته «دار المعارف» فى أول يناير سنة ١٩٤٠ .

* وقد شغل السيد فرج عدة مناصب ثقافية واعلامية بارزة خلال الثلاثين سنة الماضية .

* فى سنة ١٩٥٦ عين وكيلا ومديرا بالنيابة لدار الكتب .

* فى سنة ١٩٦٠ عين مديرا عام لجامعة الثقافة

* فى سنة ١٩٦٥ عين وكيلا لوزارة الإعلام .

* فى سنة ١٩٧٦ انتخب سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى للثقافة والإعلام .

* فى سنة ١٩٧٧ عين مستشارا لوزير الثقافة وأمينا عاما للمؤتمر العام للثقافة والإعلام .

* وقد عين عضوا فى المجلس الأعلى لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس الأعلى لرعاية الشباب وعضوا فى مجلس إدارة المؤسسة الثقافية العمالية ومجلس إدارة المؤسسة الاجتماعية العمالية ورئيسا لمجلس إدارة مسرح العمال ومديرا لتحرير مجلة الثقافة العمالية ، وعضوا فى اتحاد الكتاب ، كما انتخب سكرتيرا عاما لجمعية الصداقة المصرية الامريكية ثم رئيسا لها (١٩٨٢ ـ ١٩٨٤) .

* وقد زار السيد فرج منشآت ومراكز الثقافة والإعلام فى عدة دول

أوربية وأفريقية وأسيوية ، كما أسهم فى تنمية ودعم العلاقات الثقافية والإعلامية العربية .

* وللمؤلف صلة قديمة ومستمرة بدوائر الرياضة البدنية والصحافة ، وكان لقلمه مكان مرموق على صفحات الأهرام والمصرى ومجلة الهلال ومجلة المشاة ومجلة رابطة العالم الإسلامى ، وكان يوقع كثيرا من مقالاته بإمضاء « سيف » .

* وللسيد فرج ٦١ كتابا فى موضوعات حربية وثقافية وإعلامية من أشهرها « جيشنا فى فلسطين » و « القيادة والقادة العظام » و « عبور القناة » و « طرائف عربية وعالمية » و « أمراء الشعراء » ومسرحية « ساعة اخلاص » .

* * *

رقم الايداع ٨٧/٤٠٥٢
ترقيم دولى : ٦ ـ ٠٩٣ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

« .. ولقد وجدت نفسى مشوقا إلى تلبية الدعوة الكريمة لوضع تقديم لهذا الكتاب الشيّق ، فى هذا الغرض الطريف الذى لم يسبق أن اتجه إليه كاتب ، ولما وقفت عليه من صور صادقة وبراهين ناطقة على سداد ما خطّ قلمه وأفضى به علمه .. »

احمد رامى